الإله المجهول

محمد صموئيل بولس

عميد إحدى كليات جامعة الأزهر

طبع بأمريكا ٢٠٠١

قال لي أستاذي وأنا أعمل معه للاعداد لدرجة الماجستير عام ١٩٧٩ «انك بحاجة يابني الى قدر من الخبث والمكر، ليس المجتمع بهذه البراءة والنقاء .. حاولت أن أطبق نصائح أستاذي فلم أستطع، ليس معنى هذا أنني كنت قديسا، لقد اقترفت أثاما وذنوبا كبيرة يغفرها الرب ولكني لم أحمل شرا لأحد ..

بهذا القلب .. الطفل .. عطية الله البديعة الرائعة، مضيت في حياتي .. أبحث عن عالم جديد تسكنه البراءة والنقاء والطهارة .. نخطىء ونرتكب المعاصي ولكننا نأمل في رب غفور يمسح عنا كل الآثام ويعيدنا الى الحياة مرة أخرى.

حاول هذا القلب أن يصنع حبا كبيرا مع الله فلم ينجح! فشل مع البشر ثم راح ينكفىء على ذاته ويبحث عنه في ملكوت الله عن معجزة الايمان .. عن الله المنقذ.

بحث كثيرا كثيرا حتى تعب ..

وقرر أخيرا أن يعيش مثل النعاج كملايين البشر لا عقل، ولا فكر لها .. صار عبدا طقسيا يفعل ما يفعله الآخرون دون أن يتوقف ليسأل أو يبحث: لماذا؟!

انفرد بنفسه، حاول العثور على ذاته التي قهرها الآخرون فلم يستطع .. ذهب يبحث عن الله في كل مكان .. ذهبت الى بيت الله الى الكعبة، تعلقت بالأستار، سألت الله الهداية، طفت بالبيت خاشعا باكيا، وكنت أطرد تلك الروح التي همست في أذني فجأة .. هذه وثنية ..!! ماذا يفيد الله من هذا العبث ومن هذه الحجارة التي نحرص على تقبيلها توقفت .. ووقن في قلبي انني عبد سيء لم تدخل في قلبه أنوار الله والايمان، وطقوس العبادة التي توارثها عن أجداده وآبائه.

خاطبت الله، لماذا تثير فيّ هذه الأسئلة؟! اذا كنت أنت الاله الحق، هل تطردني من بيتك؟!.

ولكنه طردني من بيته .. لم أشعر بشيء.

.

لم أفطن أن تلك التساؤلات كانت رسالة من الحبيب واشارة من السماء أنك قادم إليّ .. لكن كل شيء بأوان .. كان عليّ أن أدفع ثمن المعرفة، البحث عن الله الحق ..

أعيتني الوسائل وأنا ألهث بذكر الله، دعوت الله بقلب مفجوع مكلوم، ولكن السماء أوصدت أبوابها في وجهي .. كان ربي قاسيا فظا غليظا، لم يمسح دموعي لم يكذب عليّ .. تركني أناديه وأصرخ باحثا عنه..

لم أستطع البوح بما في قلبي لأحد، قلت لنفسي: ملايين البشر تسير في الطريق .. أي طريق، لا تدري ولا تفكر ولا تبحث .. لماذا لا تكون «حمارا» مثلهم..؟! من أنت حتى تتحدى السلطات والمجتمع والعرف والتقاليد..؟! لقد تعبت من الكفاح وآن لك أن تستريح في هذه السن التي يبحث فيها الانسان عن حصاد عمره..

قتلت الأسئلة وأمتّ النور الكامن في قلبي، وبحثت عن نور زائف أعوض به ما أفتقده، ذهبت الى النساء، الشراب، الى الانخراط في تمجيد نفسي والبحث عن الشهرة الزائفة.. قررت أن أصبح نسخة من كمبيوتر البشر .. طابور طويل طويل يسير.. الى أين؟! لا أحد يدري، وربما سألت الذي أمامك: لماذا نحن في هذا الطابور؟! لن يجيبك أحد .. لا وقت للبشر حتى أن يسألوا الى أين الطريق؟!

فجأة، توقفت وصرخت محتجا .. جذبني الواقف خلفي حتى يأخذ مكاني في الطابور ولم يعبأ بي أحد .. وجدت نفسي منعزلا، رفعت يدي الى السماء: أين الرب؟! بكيت وعلا نحيبي، شرخت دمعاتي جدران الكون .. حتى جئت الى هنا .. الى أمريكا، حدثت المعجزة، تحنن الرب عليّ، ناداني صوته من السماء تعال اليّ .. أقبل، اترك المناصب وجاه الدنيا الزائلة وتعال معي الى السلطان والمجد الأبدي، الى السعادة التي تبهج القلب الى الشيء الذي تبحث عنه، تعال الى الحب .. الى القلب الدافيء الذي تريده .. الى الحنان الذي تفتقده .. تعال اليّ، عندي لك ما تشتهي نفسك..

كنت صادقا في بحثي عنه ناديته، صرخت، بكيت: أين أنت؟!

لماذا لا تريني نفسك؟! لماذا تذبحني الأسئلة..؟! أين أنت..؟! أبعيد فأناديك أم قريب فأناجيك؟!

وفي لحظة خاطفة تراءى لي نور بهائه، توقف الزمن ولمسني الحبيب، ربت بيده الحنون على كتفي وقال لي: هأنذا هو .. احتضنته وبكيت، دخل الى قلبي السلام احتواني، كانت عينه عليّ، لم أرتجف منه، كان ربا حنونا ودودا طيبا جميلا، صرخت أين كنت..؟! لماذا تأخرت عني..؟! ألم يصلك صراخي وبحثي اللاهث عنك؟! آه يا حبيبي يسوع!!..

وبدأ الطريق..

وعثرت على إلهي..

أما كيف بدأت المعجزة؟! وكيف وصلت اليه؟!

هذه هي القصة ..

تعالى معي إليها، لكن أطلب منك أن تستحضر عظمة الرب وأنت تقرأ ..

دون ذلك سوف تظن أنني أكتب قصة مشوقة مثيرة ..

وهي ليست كذلك، انها قصة التحوّل الكبير، قصة إيمان ..

ان الروح القدس هو الذي أملى عليّ هذا الكتاب!!

الفصل الأول

في البدء كان الألم!!

لا أريد أن أكتب قصة .. فهل تتحول تجربتي العظيمة الى مجرد حدوتة؟! هل التحول الكبير يصبح قصة مشوقة مثيرة، مجرد قصة .. يبحث فيها المتطفلون عما يرضيهم؟! لا .. لست كلمة عابرة، أنا تجربة حية .. لن تضحكوا عليّ فأقص عليكم بدايتي، هل تستطيعون خداع رجل مجرب عارك الحياة على مشارف الخمسين من عمره؟! كنت بدرجة رفيعة مسئولا في المناصب القيادية الجامعية، عميدا لاحدى كليات جامعة بالدلتا، بمصر، مسئولا حكوميا عن مركز كبير وقد حصلت على الدكتوراة منذ ما يقرب من عشرين عاما .. متخصص في الدراسات العربية والاسلامية وكاتب باحدى الصحف الشهيرة بمصر..

لا .. لن تجعلوني أتكلم عن ميلادي، في احدى المدن الفقيرة الرابضة على ضفتي نهر النيل شريان الحياة في مصر، جئت الى الحياة لأب طيّب القلب، لكنه كان يعتبر المشاعر نوعا من الضعف لا يليق بالرجال، فحاول أن يكون قاسيا معي، ليربيني على الخشونة وشظف العيش عملا بحديث رسول الاسلام «اخشوشنوا فإن النعمة لا تدوم» .. ولم تكن هناك نعمة، كنا نعيش على الكفاف بالنسبة الى أسرة أمي الثرية وكنا نعيش بالقرب من عائلتها ونرقب الفرق بيننا وبينهم، لم تتعلم أمي، فحين بدت معالم الأنوثة عليها أقعدوها عن المدرسة ولم تقض فيها سوى عامين أو أكثر .. لكنها كانت طيبة، تحب زوجها الذي لم يكن يحبها بدعوى انها جاهلة .. في هذا الجو ورغما عن أبي نشأت رومانسيا محبا للكلمة الجميلة، المعنى الجميل، أحب الحدائق والأزهار أميل الى العزلة وأسرح بخيالاتي بعيدا عن أقراني وأترابي الذين يميلون في هذه السن الى الصخب والجلبة، وقبل

أن أخطو خطواتي الأولى كانت الواقعة قد حدثت، إذ طلق أبي أمي وتركنا وانصرف الى نفسه بعيدا عن مدينتنا ..

تلقانا جدي لأمي، وكان ثريا فأحسن تربيتي والاهتمام بي، ومنحني حرية كنت أفتقدها عند أبي، لأن البيت كان كبيرا جدا، مما وفر لي الوقت كي أتمتع بالجلوس مع نفسي والعيش مع خيالاتي وأحلامي. أمي لم تكف عن ملاحقة أبي بالمحاكم والشكاوى تارة، والشيوخ والأولياء والعفاريت تارة أخرى ..

أحببت الحارة المصرية، فهي مصدر معرفتي وثراء تجربتي، لن أنسى العائلة الواحدة، الحي كله كان عائلة واحدة، في المسرات والأحزان. نشأت لم أعرف الفرق بيني وبين جرجس فالدين لله والوطن لنا جميعا، وكان جدي المقاول الكبير يدعو لمنزله بعض المهندسين المعماريين الذين يعملون معه، ومنهم مهندس مسيحي كنا نحن الأطفال ننتظر زيارته لنا لأنه ترك فينا انطباعا طيبا، هو يأتي بسيارته مع زوجته وأبنائه ويوزع علينا الشيكولاتة الفاخرة ليست قطعة واحدة ولكن لكل طفل باكو شيكولاتة لامع، يخطف الأبصار، فنتلقفه بامتنان. هذا المهندس كان يختلف عن كل المسلمين الذين يأتون الى جدي، ترك فينا ذاكرة لا تمحى، مثل اهتمامه بنا، مداعباته لنا، حديثه العذب، نظافة أبنائه واهتمامه بهم، وهو الذي .. «يشتغل» عندنا صار أحسن منا.

كيف ضحكتم عليّ أيها القرّاء الأعزاء، ومضيت رغما عني أحكي لتَم .. لا أريد أن أكون «حكاية» ولكني واقع تشكل. كملايين المصريين.. من ثقافة الآخر وامتلأ اعجابا به منذ نعومة اظفاره، لقد كان «الآخر» بالنسبة لي وأنا طفل هو ذلك الدين الآخر.

دعتنا أسرة مسيحية تسكن بالقرب منا الى عرسهم، ولم يكونوا من ذوي اليسار، ولكن ترك ذلك في مخيلتي صورة لا

تنسى لاهتمامهم بالنظام وتنوع الطعام وأشكاله ثم الأعجب من ذلك استخدامهم «الشوكة والسكينة» بالطبع لا يمكن أن أنسى ذلك! كنت أحب أن العب مع ابنتهم الخرساء فقلت لها – بالاشارة – أنني حين أكبر سوف أتزوجك لأنك جميلة، حلوة، فقالت لي – بالاشارة بالطبع – أنها مسيحية ولن تتزوج من مسلم، فلم أفهم الفرق، نحن نأكل معا ونعيش معا فما الفرق وظنت هي أنني لم أفهم فرسمت الصليب على الحائط، وضحكت ولكن دخل الى قاموسي كطفل أول اختلاف: ان المسيحية والاسلام مختلفان في أمر الزواج!

يومان جميلان لا ينساهما طفلنا، اليوم الأول حين تأتي «عربية الرش» حيث كانت ترش الشوارع بالماء صيفا لتلطف من حرارة الجو وتسوي الأرض والتراب لأن «الأسفلت» لم يكن قد دخل مدينتنا بعد! كنا نجري وراءها ونخلع ملابسنا ونستحم من هذه العربة كنوع من المرح والهرج، كنا في عمر الزهور لا فرق بين ولد أو بنت، بين مسيحي ومسلم، كانت «عربية الرش» ملكا لنا نحن الأطفال دون الكبار الذين يرقبوننا بفرحة ويسعدون لمتعتنا البريئة معا.

اليوم الثاني الجميل يوم مجيئ عم جمال «بياع الجاز» حيث لم تكن المدينة قد دخلها كهرباء بعد. وكانت تعتمد على الغاز كطاقة في الاضاءة .. ووقود لاستخدام البيت (عام ١٩٥٨). ويوم مجيئه كان عيدا إذ تسرع النسوة والصغار يلاحقهن لاستلام حصة الجاز، وكأنه قائد فاتح الجميع ينادي يا عم جمال .. يا عم جمال .. ويطرق بمفتاحه الضخم على سطح العربة فيحدث أنغاما حلوة، ونجد نحن الأطفال شيئا جديدا نلهو به وحين ينصرف ننتظر موعده التالي على أحر من الجمر كي يهل علينا بطلعته البهية، ولن أنسى أن جدي أخذ في نوبة ضحك حتى كاد يقع على الأرض حين قال لي: ماذا تريد أن تكون؟ فأجبته على الفور: بائع غاز!! لقد كان أهم شخصية يزور الحي كل أسبوع!!

حين يأتي العيد الكبير تذبح الأضحيات ويجتمع عدد هائل من الفقراء. كان الفقر شديدا في هذا الزمان - كانوا يسدون الشارع الضيق - أصلا - في انتظار اللحم الذي يوزعه جدي عليهم، وهو رجل طيب محب للخير، يجتمع أهل الحي كله في «مندرته» «وهي صالة للاجتماعات والضيوف متسعة، للمناسبات حيث يأتي المسلمون والمسيحيون على السواء يهنئون بالعيد.

كانت أحلى أوقات يقضيها جدي معنا حين يحكي لنا عن حياته وكيف بدأ من الصغر رجلا عصاميا وصار الآن يمتلك شركة كبيرة، ويحكي كذلك عن أولى حجاته وكانت حوالي عام ١٩٣١ والوسيلة الوحيدة للسفر كان الجمل واستمرت الرحلة أربعة أشهر، وكثيرا ما خرج الأعراب والبدو يغيرون على الحجاج ويسرقون متاعهم ويهددون حياتهم. في الوقت الذي كانت فيه العربية السعودية صحراء جرداء تعاني الفقر والحاجة، وكانت عبارة عن امارات صغيرة ضعيفة فلم تكن قادرة على توفير الحماية لحجاج الكعبة في ذلك الوقت.

ويحكي جدي في أمسياته حين نجلس حول المدفأة نأكل «أبو فروة» جميل الطعم والمذاق بعد انضاجه على نار المدفأة المتوقدة، يحكي عن موتى لعدة أيام وأنا ابن سنتين وكيف أن أمي وضعتني في الفرن التي يخبزون فيها الخبز كما قال لها الشيوخ والدجالون - دون أن تشعلها بالطبع - حتى أتخلص من الشياطين والأرواح الشريرة التي تلبسني وقد ظللت - كما حكى جدي - فترة طويلة نائما بلا حراك سوى أنفاس ضعيفة متقطعة تخرج منّي بصعوبة. كان الكل يتمنى موتى رحمة بي وبأمي التي أعلنت الحداد وارتدت السواد وظلت تبكي ولديها أمل أن أعيش، لم يكن أبي موجودا، ولما علم مؤخرا جاء لكنه جاء لكي يستلم جثتي ويدفنني في بلدته في مدافن عائلته التي تبعد عن بلدنا حوالي خمسمائة كيلومتر .. ولكن حدثت المعجزة وبدأت أتحرك ولكن تركت فيّ هذه الظروف

الصحية أثرها على بنيتي الضعيفة وهزالي، أضف الى ذلك كوني بلا أب أشكو اليه ما أعانيه أو أطلب منه ما أريد مثل باقي الأطفال، وأتذكر أن جدي لم يكن يرتاح الى أبي لتركه لنا ست سنوات كاملة، وحين جاء أبي يطلب ارجاع أمي تم عقد قران حين كنت أنا سعيدا بينهما حيث العروس أمي والعريس أبي!!

أخذنا أبي الى بلدة أخرى حيث كان يعمل موظفا بسيطا. وهذه التجربة تركت في أعماقي أثرا عجيبا، فقد كنت أفتقد أبي مع وجوده بيننا. كنت أخجل من جلوسي معه، أو تناول الطعام معا وبعد أن ينصرف الى العمل تضع لي أمي الطعام مرة أخرى، ولقد هددني مرارا «أنا لست زوج أمك يا ابن ....» ولكن فترة الانفصال الطويلة التي تركنا فيها أنا وأخي الأصغر خلقت بيننا مسافة من الجفاء ظلت تلازمني فترة طويلة.

انتقلنا الى البلدة الأخرى وعشت عامين من أحلى سنوات عمري في الطفولة، التحقت بمدرسة مسيحية تسمى مدرسة الغطاس الابتدائية لأنها قريبة من مسكننا، أحببت المدرسة وأعجبت بمعلمي المسيحي ما أزال أتذكر اسمه صبري - وفيما بعد وأنا طالب بالجامعة ذهبت أبحث عنه وسافرت الى هذه البلدة التي كانت فيها المدرسة: لقد أحيل الى المعاش ومكان المدرسة وجدت برجا سكنيا عاليا وهكذا ذهبت مدرستي!! أما عن مدرسي فقد وجدت صديقا له يقول لي أتريد شيئا منه يابني وأنا في الخدمة قلت له أريد فقط أن أسلم عليه، فلن أنسى تعليمه لي، أذكر حبه لنا وسماحته إذ كان يدرس لنا كل المواد ومنها اللغة العربية والدين الاسلامي أتذكر أنني لقيته مرة خارج المدرسة حين ذهبت الى السوق وكان يجلس عند دكان أحد الحلاقين، فخجلت وتمنيت أن تنشق الأرض وتبتلعني خجلا وحياء واحتراما لأستاذي الذي وقف فجأة حين لمحني من بعيد وناداني يا - يا... والتفت اليه سعيدا بهذه اللفتة الطيبة من استاذي، هذا من

روعي ومن شدة خجلي وسلم عليّ، وسألني عن أحوالي والى أين أنا ذاهب، وهل أريد شيئا؟! عدت من السوق سعيدا لأخبر أمي وأخي لقد قابلت معلمي الودود ولكن أتذكر أنني تضايقت من جلوسه داخل دكّان حلاّق، .. انه أكبر قدوة ومثل لنا وله مكانة كبيرة، فكيف به يجلس في السوق. كان للمعلم حينئذ مكانة وشخصية واحترام فقدها في هذا الجيل الحالي.

أحببت الموسيقى في ذلك الوقت في المدرسة، كنا نغني أناشيد جميلة ونتعلم العزف في حصة الموسيقى وبعد المدرسة أحيانا، وكانت لنا مكتبة أتذكر المجلات التي فتحت عيني على جمال الصورة الملونة والكلمة. لقد بدأت سنوات التكوين في التشكيل الآن .. ثم ظهر حبّي للغة العربية والقرآن والقصص والحكايات، ظهرت داخلي في هذا الوقت بشائر تنبيء عن انسان ما مختلف «يهرب من الزحام وألعاب الأطفال، ويهوي الخيالات والاطلاع». قرأت كل ما استطعت أن أجده في ذلك الوقت من مجلات مصورة اسمها السندباد، قصص الأطفال، وكتب مبسطة عن المعلومات العامة، كنت أقرأ بنهم غريب في مثل هذه السن لكنها هبة من الله رزقني اياها.

استمرت موهبة القراءة تصحبني في مراحل التعليم المختلفة، وفي المرحلة المتوسطة قابلت معلمين كانوا يغارون مني، فكيف أتحدث باللغة العربية السليمة في اذاعة المدرسة دون أن أقرأ من ورقة ولكني أرتجل وأخطب في زملائي في طابور الصباح .. قابلت أيضا معلمين أثروا في حياتي ودفعوني الى الأمام وتنبأوا لي بمستقبل واعد. لكن المرحلة الثانوية شهدت تحولا كبيرا، لقد زادت المعرفة والثقة بالنفس، كنت أشرح لزملائي اللغة العربية، وأعلق في طابور الصباح كل سبت على مقال شهير للكاتب الكبير محمد حسين هيكل كان بعنوان «بصراحة» صباح كل يوم جمعة في جريدة الأهرام، كنت أنتقده وأناقش آراءه. من أهم مقالاته

ماكتبه تحت عنوان «بحر الرمال والأسلاك الشائكة» الذي يحذر فيه الكاتب من عبور أية قوات مصرية الى الضفة الشرقية، فان النابلم والقنابل الحارقة سوف تحصد غالبية القوات المصرية اذا غامرت وقررت الحرب. قلت في تعليقي - وأنا طالب بالثانوية العامة - ماذا تقصد بما تقوله يا هيكل؟! هل جئت الآن تخوفنا من الحرب؟! وهل هذا هو قرار القيادة السياسية وأمرك سادتك بأن تروج له حتى ننسى الثأر وتقتطع سيناء العزيزة من أراضينا ونرضخ للواقع؟! وأذكر أن ناظر المدرسة قد اهتز واضطرب وخرج عن شعوره وخاف من عواقب الأمور وقطع الكهرباء عن الميكروفون ولكن الطلاب فطنوا لذلك فصاحوا أكمل بدون ميكروفون نحن نسمع جيدا، وتقدمت وسط صفوف الطلاب وصرخت فيهم لا كرامة لنا بدون حرب ولو كان جمال عبد الناصر حيا لقطع رقبة هيكل .. ولكنه السادات الذي يحب الكرسي والعرش ويخشى على المنصب أن يضيع منه!!

في هذا الوقت كان عدد غير قليل من المدرسين بالمدرسة الثانوية لا يعلم شيئا عن هيكل والسياسة وأخبار الدنيا من حوله. أو يمتلكون هذا الكم الهائل من المعرفة والثقة بالنفس ولن أنسى أحد الأساتذة المسيحيين لمادة الفلسفة والمجتمع كان يتحدث عني في الفصول الدراسية المختلفة التي يدرس فيها واسمه مجدي، كان يعاملني بحذر مع أنني أحببته وحاولت أن أقترب منه وأرسلت له في احدى المرات بطاقة معايدة بمناسبة عيد الميلاد فقال لي شكرا ولكنني متحفظ على ماكتبته في البطاقة ولم أعرف ماذا كتبت له ولكنني أذكر أنه احترم عقلي جدا بالرغم من توجسه الدائم مني.

في المرحلة الثانوية لا ينسى فتانا الصدمة العنيفة التي واجهتنا بموت جمال عبد الناصر، كان أغنية الثورة الخالدة وكرامة الوطن والعرب وحلم القومية العربية كان «الولد» الذي ننتظره في الأغنية

– الحلم – الشعبية: «يا بلد عايزة ولد»· والبطل الذي خلص البلد من الهوان والفقر والجهل، قال لنا: ارفع رأسك يا أخي فقد مضى عهد الذل والاستعباد، أحببناه أكثر من آبائنا وأهلنا واشارة واحدة منه كانت تكفي لكي نقدم أرواحنا فداء له وللوطن· يمثل عبد الناصر بالنسبة لي الحلم «اليوتوبي» الذي كنت أبحث عنه والجمهورية المثالية الفاضلة التي دعا اليها أفلاطون، جسد لنا نوعا من الوجود المعنوي بين القوى العظمى ذلك الوقت، حاول توحيد العرب وقاوم الاحتلال في افريقيا وحرر معظمها من المستعمر، وقف ضد الظلم في أي مكان، لذلك أحببناه·

حين حدثت الهزيمة في يونيو ١٩٦٧ وأعلن عبد الناصر وقتها أنه يتنحى ويترك الحكم لآخر صديق للأمريكان اسمه زكريا محيي الدين، حتى يجد حلا لقضية الشرق الأوسط، لم نتركه يعلن ذلك وقال أعداؤه في الخارج والداخل أنها تمثيلية ولكنني واحد من الصبية الصغار في ذلك الوقت خرجت بتلقائية حين سمعت بيان التنحي لدى الحلاّق – وكنت أقصّ شعري – هببت واقفا وأنا أبكي واصرخ، لم يفهم الحلاق ماذا حدث جرى ورائي «تعالى يامجنون كمل حلاقة» وكنت أصرخ وأقول لا ·· لا يمكن أن تتركنا، حين ذلك أذيعت لأول مرة أغنية حنون بالغه التأثر لنجاة الصغيرة، كانت تقول:

غالي غالي غالي لا الصبر ينفع فيه ولا الزمان
يداويه ولا الليالي

وفي وسط الطريق ووقفنا ···

كان عبد الناصر «الغالي» يريد أن يتركنا في وسط الطريق ويتنحى عنا ولكننا صممنا على الخروج في مظاهرات صاخبة تناديه: ارجع الينا، كنت صغيرا فلم يسمح لي بالسفر الى القاهرة

مع الآلاف بل الملايين للقاء عبد الناصر مع جمهور الشعب لمطالبته بالعدول عن التنحي.

وحين مات عبد الناصر فجأة بعد ثلاث سنوات من هذا اليوم التاريخي، كانت صدمة هزّت المشاعر وحطّمت القلوب، كان مشهدا لا ينسى حين خرج ستة ملايين يودعون حلمهم وزعيمهم، في صباح اليوم التالي بعد اذاعة البيان الذي تضمن الخبر المشئوم، ذهبنا الى المدرسة وعطّلنا الدراسة وخرجنا بمظاهرات صاخبة، قدت أنا المظاهرة الأولى التي اندلعت بعدها المظاهرات الأخرى في شوارع المدينة الصغيرة .. كان البكاء هيستيريا والحزن يخيّم على البلاد والعباد، كنا نردد هتافات أذكر منها:

يا نميري يا قذافي .. أخوكم التالت سابنا وماشي
يا منى قولي لأبوكي .. المائة مليون بودعوكي

في وسط الأحزان والبكاء لا أنسى صديقي بهاء الذي قاد المظاهرة ليمر من تحت المنزل الذي تسكن فيه فتاته، وكذلك فعلت أنا لم أنس فتاتي وسط المظاهرة، فسرت في الشارع الذي يوجد فيه بيتها حتى أريها كم أنا ثوري وبطل.

كان السادات هو الذي أذاع بيان موت عبد الناصر مما جعلنا نتشاءم منه ولا نقبله كنا نحن الشباب نرفضه بشدة دون مبررات حقيقية سوى أنه جاء ليخلف الزعيم. وكان السادات في ذلك الوقت مستضعفا من كل القوى التي وجدت على الساحة منهم علي صبري وسامي شرف ومحمد فائق وشعراوي جمعة ومحمد فوزي وهيكل. اختلفوا فيما بينهم على من يخلف عبد الناصر، كل يرى في نفسه زعيما يخلف الزعيم ولكنهم اتفقوا جميعا على السادات، كل فريق يمني نفسه أن السادات لن يصمد أكثر من شهور قليلة وبالتالي يجني هذا الفريق الثمرة ناضجة، اختلف

الأقوياء منهم ولكنهم اتفقوا على شخصية السادات فهو اضعفهم ويمكن التخلص منه بسهولة، وبالتالي اكتسب السادات شبه اجماع القيادة السياسية والعسكرية فانتخب خلفا لعبد الناصر. لكن السادات كشف بعدها عن وجهه الحقيقي، فهو شخصية ماكرة ذات دهاء، فلم يلبث أن «تغدى بهم جميعا قبل أن يتعشوا به» .. وضعهم جميعا في السجن استنادا الى قانون الطوارئ وبتهمة التآمر لقلب نظام الحكم وتكوين مراكز قوى تريد أن ترث عبد الناصر وتحيد عن طريقه. وخلا الجو للسادات الذي بدأ معركته مع الشباب الذي كرهه بشدة، ومن المضحكات المبكيات أن أحد أقربائي من جماعة الاخوان المسلمين سبق أن حبسه عبد الناصر كان يتصدر المظاهرة الى جانبي وأنا في سن أولاده لأنه كان يخشى أن تكتب التقارير السرية أنه لم يمش في جنازته. كان عبد الناصر مرعبا لخصومه حتى بعد موته. ففي الوقت الذي أعرف فيه أن قريبي يكره عبد الناصر ولا يطيق أن يسمع اسمه إلا أنه تحامل على نفسه وتصنع البكاء وأظهر الحزن والتأثر في ملامح وجهه، بل همس في أذني أن نمر بالمظاهرة أمام قسم الشرطة حتى يرى من يرى ويسمع من يسمع من أجهزة الأمن!

في هذه المرحلة بانت ملامحي الشخصية، التعلق بالله والميل الفطري الى الدين، وحب الخير، والبحث عن المثل الأعلى والعيش في أحلام المدينة الفاضلة. كنت أرفض الواقع، واقعي الأسرى، حيث أمي وأبي في شجار دائم، هي لا تشعر بالأمان وتأتيها أنباء عن زواجه من أخرى، فالاسلام يبيح له ذلك، خلا بيتنا من السلام والأمان كان مهتز الأركان، فأقل العواصف تكاد تطيح به وتهدم أركانه. لقد تضخمت لديّ عقدة الخوف والفزع من الآتي، وتوقع الشر، فانعزلت مع نفسي، أكتب الشعر وأحب القراءة وأعيش منفردا في عالم أنشأته لنفسي وخلقته من وهمي. لم أحب البيت ولا التواجد فيه، فكنت اختلق الأعذار للبعد عن بيت لا توجد فيه سعادة ولا ضحك ولا سلام ولا أمان كان الضحك في بيتنا قليلا

نادرا بل أنه من المحرمات أحيانا، واتتني الجرأة مرة لأسأل ببراءة وحب والدي لماذا لا تضحك يا والدي؟! لماذا البيت كئيب؟! وهزأني وقال لي «المرة الجاية أرقص لك علشان تنبسط»·· ثم أردف «الضحك من غير سبب قلة أدب»؟! فزاد ذلك من ظروف عزلتي·

كادت طاقاتي تنفجر في داخلي، لابد من مخرج لها، أريد تكوين فرقة مسرح وقد استطعت أن أفعل ذلك وأنا تلميذ في الثانوية، ولضيق الفصول الدراسية لجأت المدرسة الى المسرح الملحق بها وجعلت منه فصولا دراسية أخرى وأقنعت ناظر المدرسة الذي كان متحمسا أن أعيد الروح للمسرح المدرسي، نظفناه أنا وزملائي الطلاب وأعددناه وأقمنا أول حفل في المدينة· كتبت أنا المسرحية وأخرجها أحد زملائي كانت بعنوان «ثمن الفداء» عن فلسطين السليبة والأبطال الذين يقاومون الاحتلال الاسرائيلي لفلسطين الحبيبة·

كنا أيضا في ذلك الوقت شبيبة جمعية الشبان المسلمين، وتلقفنا أحد المرشدين ليعطينا دروسا في القرآن والعقيدة، يومان في الأسبوع وشيئا فشيئا وجدت نفسي أستسلم للشيخ وأضع روحي على كفي خدمة للاسلام ولكنه لم يطفيء غليلنا أو يشفي غلتنا من الزاد الروحي فاخترت جماعة من الزملاء ورحنا نمر على المساجد ننظفها بأنفسنا ونغسلها بالصابون والماء ونشتري أدوات التنظيف من مصاريفنا البسيطة فهذا هو الطريق في رأينا للخلاص، والوصول الى السماء أن نذل أنفسنا للرب ونغسل أماكن العبادة المقدسة وننظفها فينظف الله قلوبنا ويفتح باب السماء الموصد في وجوهنا كي يلتقي بنا ويعطينا نوره· ولم أجد هذا النور الذي كنت أبحث عنه، انصرفت الى تجميع أبناء المسلمين وبناتهم في أحد المساجد الكبيرة وأخذت مجموعة من المدرسين الأكفاء ونظمت لهم جدولا في المواد الدراسية للثانوية

العامة بغية تقويتهم ومساعدتهم في الحصول على أعلى المجاميع كي يتفوقوا على المسيحيين الذين كانوا يحصلون على أعلى المجاميع. ومع أنني كنت طالبا في الثانوية العامة الا أنني كنت أهتم بغيري أكثر من اهتمامي بنفسي. كانت نصرة الاسلام ونجاح أبناء الاسلام ودخولهم كليات مرموقة طريقا للخلاص حتى أرى بهاء نور الله، وأقتنع تماما أنه راض عني وأحصل على سعادة في قلبي وسلام ووئام مع نفسي .. ولكن فشلت أيضا في هذا المشروع، فقد تحول الى «أكل عيش» بالنسبة للمدرسين، وبدأ بعضهم يضاربون ويتنافسون ويستخدمون المسجد والدروس المجانية لا لوجه الله وانما كنوع من الدعاية واصطياد الدروس الخصوصية، ولما أخذ كل منهم كفايته من العدد الذي يريده امتنع عن الحضور الى المسجد وفشل الهدف السامي مرة أخرى!!

اجتمعنا أنا والشبان وصرنا نناقش كيف ننصر الاسلام ونحقق الايمان الكامل حتى يرضى عنا الله ويشعرنا بمحبته، كانت الطاقة هائلة بداخل كل منا ولم نجد مرشدا لنا، أو قل لم نقتنع بأحد، اتفق هدفنا أن نكسر مصابيح الكنائس التي تستفزنا بجمالها، وقمنا بالمهمة بنجاح وتم تحطيم جميع المصابيح وأخبرنا أحد مشايخنا فهلل وكبر وفرح بنا ولكنه قال ليس هذا هو العمل «اقتلوا الشيطان الذي في داخلكم أولا وانهلوا من نور العلم واحفظوا القرآن واقيموا الصلاة في موعدها واكثروا من الصوم حتى يهديكم الله»، لم يعجبنا هذا الكلام «الصعب» حاولنا أن نحطم صليبا كبيرا مضيئا في مواجهة المئذنة لأكبر مساجد المدينة، ظننا أنه يتحدى المسلمين ويجب كسره لاذلال المسيحيين ولكننا فشلنا، عدنا الى الشيوخ نبحث عن الحل لديهم، لدينا طاقة وحب للدين كيف نوجهها توجيها سليما أعادوا علينا: أكثروا من الصلاة على النبي والاستغفار، عليكم بالوضوء فهو لكم وجاء «وقاية وحصن» ولكن المسافة بعيدة جدا بيننا وبين ما يريده الشيوخ منّا، كانت لدينا أسئلة لا نجد لها اجابات شافية، ولأول

مرة بدأت أشعر بالخطر، بدأ الشك يزحف الى أعماقي، والأسئلة تتوالد تقتلع أركاني وتقض مضجعي، أين هو الله؟! وهل هو حقيقي أم أنه وهم؟! هداني تفكيري في هذه الأثناء الى فكرة الموت .. كان التغني بالموت فيه شفاء الى حد ما وتهدئة للثورة التي بدأت طلائعها تهاجمني، فأهجر المذاكرة، أصلّي كثيرا ثم أتوقف، أعود أسأله، لا أجد اجابات، تجتاحني الثورة في داخلي من جديد وهكذا حتى ظننت أن أحد النصارى قد صنع لي «عملا» يبعدني عن التفوق وعن خدمة الاسلام ويجعلني أشك فيه اتجهت الى السير في الجنازات لتشييع الموتى وكانوا ينشدون كلمات مؤثرة باكية - لم تعد الآن الا نادرا - منها:

ولو كانت الدنيا تدوم لأهلها
لكان رسول الله هي حيا لاميتا

كانت تشدني هذه الأحزان وتلك «المناحة» وصراخ أهل الميت الذي يشبه الموسيقى التصويرية للحن جنائزي مؤثر، وفيما بعد .. بعد ايماني بالمسيح أدركت سر اعجابي بهذه الأناشيد، أنها تشبه الترانيم وتمجد الله. كان صوت خفي ينادي من بعيد لم أكن أتبين مصدره، لكنني أشهد أن الجنازات وأناشيد الموتى وأغنيات الفقد التي كانت تصحب تشييع الميت كانت تغسلني، فأبكي وأتطهر، وأعود للحياة انسانا قد شفي من أمراضه وأسئلته المثيرة وأحزانه وضعفه وشهواته، ولطالما شعرت بعدها براحة إذ خرجت الآهة المحبوسة داخلي، وذبحت الأسئلة التي تصلبت أمامي، وانتصبت في طريقي تسرق مني الأمان والسلام، أسئلة تهدأ الى حين ثم تعاود الظهور ثانية لتطفىء وهج حياتي وتجعلني مكدرا عابس الوجه دائما أحمل جبلا من الهموم. في هذه المرحلة فكرت في الموت، لماذا لا أضع حدا لحياتي؟! وينتهي هذا العذاب، لن يفهم بعض القراء الأفاضل ما أريده، ولكني كنت أواجه منطقة خطرة تقترب من الجنون، لم أجد أحدا لكي أكلمه،

ولم يحتملني الشيوخ أن أناقشهم ٠٠ كان الرب بعيدا عني جدا ولكني كنت أصلي أحيانا حتى أقوم بالواجب وكفى ٠٠ انني أعبّر عن أغلب شباب جيلي، كانوا يبحثون ولكنهم لم يجدوا من يمد يديه اليهم شباب يريد أن يحقق ذاته وأن يجد نهجا دينيا سليما لا عوج فيه. لقد حاول بعض الشباب أن يجرني معه الى فكر المتشددين الذين بدأوا يظهرون في ذلك الوقت عقب افراج السادات عن مرشد الاخوان المسلمين من السجن، ومنحهم السادات فرصة العمر وأتاح لهم أن تعود مجلتهم «الدعوة» الى الظهور. هي أيام لن ينساها فتانا لأنها أثمرت فكرا مشوها عانت منه مصر كثيرا وما تزال تعاني حتى الآن.

تحضرني حادثة غرق تعرضت لها أثناء هواية تشييع الجنازات التي كنت أغرم بها في ذلك الوقت، كان ذلك في منتصف عام ١٩٧٢ وأنا استعد لامتحان الثانوية العامة، ففي احدى «الجنازات» التي سرت خلفها حتى نصل الى المقابر التي تقع شرق النيل وبعد دفن الميت استعجلت العودة الى المنزل حتى لا يضيع الوقت فرجعت من المقابر عن طريق أحد المراكب الصغيرة وتصادف وجود عائلة مسيحية عادت لتوها من زيارة القبور في أحد الأعياد، وكعادتنا مسلمين ومسيحيين في توزيع الفطائر والكعك على الفقراء اكراما للميت ورحمة عليه وكأنه هو الذي يأكل هذه الأصناف التي تصنع عادة في الأعياد، وأرادت العائلة المسيحية أن تقدم للمراكبي العجوز وابنه كعكا وفطائر وتمرا حملها ابنه في حجره الذي لملم جلبابه صانعا منه وعاء لكل ذلك وبينما كان يسير على أطراف المركب منشغلا بالغنيمة والعطايا فقد توازنه فجأة وانزلقت قدمه وسقط في عرض نهر النيل، وأخذ يصرخ «الحقوني» ٠٠ «يابويا الحقني٠٠» وحين رأى أبوه هذا المشهد المؤلم المثير ابنه الشاب الوحيد يشرف على الموت حتما وهو لا يستطيع أن يفعل شيئا، فقد الرجل عقله تماما وأخذ يهذي ويصرخ ويبكي وترك المركبة «والدفة». ابتلع النهر الكبير الشاب

ولم يعد له أثر بينما كان الكعك والفطائر يطفون بأمان، يا الله .. فوق الماء. لم يعد الأب يسيطر على المركب التي امتلأت بالماء وراحت تتأرجح يمينا ويسارا، وسلمنا أمرنا لله وصرخ الرجال والنساء المسيحيات: يا يسوع يا مخلص هل تتركنا نموت يا أم المخلص يا «عدرا» يا طاهرة سمع صديقي المسلم نداء السيدة العجوز التي صرخت في السماء: «هل تقضي على العائلة كلها يا يسوع؟! فنهرها صاحبي قائلا لها: أتريدين أن تموتي كافرة قولي يا ربنا يا لا اله الا أنت الواحد القهار فردت غير خائفة هو كذلك يسوع المسيح لا اله الا هو الواحد القهار، وياللعجب وجدنا القارب بعدها يدخل الى جزيرة منخفضة الماء قريبة من الشاطئ، فهرولنا نصرخ خارجين من القارب الذي امتلأ عن آخره بالماء ثم بدأ يختفي هو الآخر، كانت المياه تغمرني حتى ذقني، كنت أرى الموت بعد أن اختفى رجل آخر من الموجودين وراح في أعماق النهر، لكننا وصلنا أخيرا الى بر الأمان، الى الشاطئ. لقد كتبت لنا النجاة وأحسب أن يسوع المسيح قد سمع صراخ المرأة العجوز - المؤمنة به - فأجابها الى طلبها ولكن الذي أتذكره أنني ذهبت الى أحد المشايخ في نفس اللحظة كي يعيد اليّ السكينة والأمان لأننا رأينا الموت بأعيننا .. أما لماذا لم أنتبه الى اشارته وهو يقول لي أنت تبحث عني وهذا هو دليل وجودي .. لم أنتبه، كنت شابا في مقتبل الحياة، تعوزني الخبرة، معجب بفتوتي وثقافتي وقدرتي على خلق إله جديد على هوايا.

مازال أذكر كم أفنيت ذاتي من أجل العثور على الله الحق، كم من الأيام قضيتها صامتا في انتظار كلمته، لكن كان الواقع يخذلني دائما، واقع المسلمين من أقربائي الأتقياء - الأشرار - وهم يأكلون أموال اليتامى ويسرقون ويتظاهرون بالايمان. لن أنسى أبدا هذه الأفعال النكراء التي نفّرتني من المسلمين. كان عمي رجلا أزهريا تقيا - أو هكذا أراد أن يعرف عنه الناس التقوى والصلاح - حبس أيام عبد الناصر خمس سنوات كاملة

لاشتراكه في تنظيم الاخوان المسلمين، ولما خرج من السجن صار شيخا كبيرا يأتي اليه البشر من كل صوب وحدب تتبارك به وتسمع منه قصصا عن تعذيبه وصموده في السجن، وصار له «صيتا» كبيرا ولكني – بالمصادفة – رأيته يقترب من جريمة الزنى!! ولم أفتح فمي أو أتكلم فسوف تجد لديه ألف تفسير ولكن تعالى ياقارئي أطلعك على هذا المثال النقي في أعين الناس والذي تحطم أمامي وفقدت فيه القدوة، فلم أكن التفت اليه، ثم بدأ ينكشف للقريبين منه وتظهر أطماعه وشروره ومفاسده لقد أخذ حقوق اليتامى وكتبها باسمه مستغلا وجوده بالقرب من الرجل الكبير المريض (جدي) وأخذ أوراقه واستولى على أختامه وفعل ما يريد دون وازع من ضمير أو أخلاق.

كان محتالا ماكرا، فلكي يضمن الشرعية على تصرفاته اللأخلاقية واللصوصية كان يجمع شيوخ المدينة جميعهم ليتناولوا الغداء الحافل عنده كل جمعة بعد الصلاة، وصار أماما لهم بأموال ليست من حقه، بل هو الوارث لهذا المسجد، تمتد الموائد أمام المسجد حتى يأكل الرائح والغادي ولدينا مثل شعبي مشهور «اطعم الفم تستحي العين» فقد أصبح يمتلك شعبية كاسحة. فالشيوخ تأكل وتشترك معه في النهب فلم تتكلم؟!

ترك هذا في أعماقي جرحا لا يمكن أن يندمل، وبدأ الانقسام داخلي يتعمق .. كنت أذهب الى المسجد مع ثلة (جماعة) العلماء والشيوخ والأصحاب وأسمع كلاما جميلا فأبكي وأطلب وجه الرب، ثم نخرج من المسجدلأرى واقعا آخر: أفعالا مشينة وكذبا على الله ونفاقا ورياء، فيتأكد لي أنه ليس هذا هو الدين الذي أبحث عنه. ليس هذا هو الإله الذي أرجوه ومن يومها وأنا أعتقد أن الدين بمعزل عن الحياة .. فيجوز أن يكون لك نوعان من الحياة مختلفان: حياة حقيقية تتجرد فيها من المبادئ والمثل العليا والأخلاق تكشف فيها عن وجهك الحقيقي أمام نفسك

وبعض القلائل من المنتفعين الذين اكتشفوا زيفك. وحياة أخرى ترتدي فيها «الماسك» لتخرج الى الناس بلحية كثيفة وجلباب أبيض وبضع كلمات تتمتم بها في سرك حتى تجيد رسم الشخصية المؤمنة وتجيد اخراجها الى البشر البسطاء فتلعب الدور ولا أحسن ممثل!! قد يناقشني أحدهم ويقول لي ان الاسلام كفكرة يكاد يكون مثاليا ولكن المسلمين لا يعملون به، وقد يرد آخر ألا توجد الا هذه الأمثلة الرديئة؟! وهل ليس لها نظير في أديان أخرى؟! ان المشكلة ليست في الدين ولكن في المتدينين .. وأطمئن كل من يثير مثل هذه الأسئلة، أنا أتحدث عن جذور التحول ورحلة البحث عن الإله المجهول في حياتي وهذا ما حدث بالفعل. إنني أكد ذهني وأدخل في أركيولوجيا حياتي لأستخرج منها جذور التحوّل وأجد بداية النبقة الصغيرة متى تم بذرها؟! أحفر في أعماقي ليس بحثا عن البترول - ولكن بحثا عن بدايات الرفض لهذا الدين وأسبابه.

كنت في ذلك الوقت أبني عالما من المثاليات، ولم يكن ممكنا أن أدخل الى مدينتي الفاضلة المنافق والكذاب واللص والمخادع، لابد من النقاء، ولم أجد أحدا لأدخله الى مدينتي!! حتى أنا نفسي بدوت أمام ذاتي مليئا بالخطايا، أبحث عن قشة تنقذني من الغرق. كان التيار قويا والعواصف شديدة ولم أستطع الوصول الى بر الأمان، كنت أهرب من كل ذلك بالقراءة الجادة الدؤوبة .. كنت كمن ينتحر في القراءة، أحيانا أقرأ عشرين ساعة، كتبت على «طاولتي» الصغيرة التي اتخذتها مكتبا «إذا كان لا بد من الموت فلتمت واقفا .. مثل الأشجار التي تموت واقفة، لا تنحني أبدا لأحد، لا تبحث عن ريشة تنقذك من الغرق - مجرد ريشة - لا بد أن تكون قاربا لنفسك يضمن لك السلامة بقية حياتك».

رحت أبحث عن الشيوعية وقرأت بعض الأفكار الخاصة بها والتقيت بالمتشيعين لها وكدت أقع في شباكهم لولا ذلك البغض

الرهيب اللانسـاني لكل من هو غني!! والكراهيـة العـمـيـقـة لمن يتمتعون بمستوى طيب في الحياة وبرغد في المعيشة ٠٠ كانوا مجموعة من المحرومين المعوزين الذين تدفعهم عقدهم الى الانتقام والحـقـد والكراهيـة لم أر منهم نسـمـة حب تهب على أفكارهم الجريئة فتخدعني وتوقعني في شباكهم، وحين أتذكر ذلك الآن أشعر بسعادة غامرة أنني لم أقع بين براثنهم لأن حياة الكثيرين منهم انتهت بفواجع أو كوارث ولم ينجح أحد إلا الذين عدلوا عن هذه الأفكار البغيضة لأنها ضد أبجدية الحياة: الحب وضد آدمية الانسان.

تركت هؤلاء وانكببت على القراءة وكان همي الأول أن أشتري الكتب، وتصبح لدي مكتبة غنية من كل المعارف، قرأت سلسلة المسرح العربي، ومعظم المسرحيات العالمية المترجمة قرأت القصص والاعترافات وكتب السياسة والفلسفة والشعر والأدب والنقد ومذكرات القادة والزعماء والعلماء حتى كنت أصدر من بيتي بعض المجلات والكتيبات أكتبها بنفسي وأنسخ عددا منها - لم تكن أجهزة التصوير المتطورة قد ظهرت بعد - وأوزعها على أصدقائي ليطلعوا عليها ثم يعيدونها اليّ. علمتني القراءة حب البشر جميعا والتسامح فالقراءة حب الخير والمثالية فتعلمت ألا أجرح مشاعر أحد أو أتجنى على آخر أو أظلم، كنت أعتقد - ومازال - أننا جميعا مخطئون ولسنا ملائكة وكانت تعجبني آية مشهورة لدى المسيحيين «من كان منكم بلا خطيئة فليرجمها أولا بحجر٠٠» أحببت قيمة العدل وجاهدت أن تسود بيننا ٠٠ لكن!!

ما أزال أذكر أن الأخصائي الاجتماعي للمدرسة الثانوية كان رجلا طيبا، لن أنسى اسمه «بشير» اختارني رئيسا لاتحاد طلاب المدرسة الثانوية في اليوم السابق على اجراءات الانتخابات ولكنه ضايق بعض الطلاب الأقباط منهم طالب ما أزال أذكر اسمه «جورج منير» ولم يكونوا مخطئين لكنهم تعرضوا للاضطهاد ولم

أعد أذكر التفاصيل المهم أنه استبعدهم من الانتخابات بسبب ديانتهم وقد تجمهر بعضهم ورفضوا أسلوب الأستاذ فما كان منه إلا أن قرر فصلهم من المدرسة أسبوعا بدون وجه حق، ووجدت نفسي تلقائيا أنضم اليهم وأرفض الظلم الواقع عليهم فما كان من الأستاذ بشير إلا أن شطبني من الرئاسة لاتحاد الطلاب قائلا: ظننتك رجلا تفهم واجباتك لكنك لم تنضج بعد؟! أتقف مع هؤلاء النصارى ضد دينك؟! والحقيقة أنهم لم يفعلوا شيئا في حق ديني ولم يقترفوا إثما ضد تعاليم الاسلام لكنه التعصب الأعمى المميت الذي حاول أن يسلبهم حقهم في التعبير عن أنفسهم ووجودهم. وأنا أذكر الأسماء واضحة حتى لا يظن القارئ أنني أبالغ بشيء، أو ألوي عنق الحقائق لكي أحوذ على اعجابه وسوف يتكلم أبطال هذه القصة إن طلب منهم ذلك ..

ليس معنى هذا أن المسلمين فقط كانوا متعصبين ولكن الجو قد بدأ يتكهرب بمجيء السادات وبدت نعرة الدين تعلو فوق مظاهر الحياة المصرية في ذلك الوقت .. نأتي الى الأستاذ موسى المسيحي مدرس التاريخ الاسلامي، كنت أحبه لأنه كشف لي عن الزيف والشرور والبهتان في التاريخ الاسلامي، وقد تعرض لكثير من المشاكل وللمساءلات مع السلطات المختلفة. كان «موسى» يتكلم عن الخلافة الاسلامية باستهزاء ويشرح بقوة «ميراث الرجل المريض» الذي وزعته أوربا على نفسها كغنيمة انقاذا للعالم الاسلامي من الجهل!! وكم أخبرنا عن مغامرات الملك فاروق الذي كان يحكم باسم الاسلام ويهوي النساء ولديه نظارة عجيبة تكشف عن مفاتن وخفايا جسد المرأة دون أن تخلع ملابسها، فهو يقف في شرفة عالية في قصره يرقب الرائحات والغاديات واذا كشف عن قدرات غير عادية لامرأة ما نادى حراسه واقتادوها اليه فيستضيفها عنده ما شاء له الوقت والمزاج!! هذه النظارة العجيبة كنت أتمنى امتلاك واحدة مثلها لا لأرى بها كل النساء ولكن واحدة فقط كنت أحبها بجنون حبا رومانسيا دون أن تدري

نجحت في الثانوية العامة ليس بتفوق كبير ولكن بمجموع يسمح لي بحرية اختيار الكلية التي أريدها، كنت أتوق الى العدل، الى ساحة القضاء، الى الدفاع عن المظلومين، فاخترت كلية الحقوق - جامعة القاهرة، وقبل بدء الدراسة، رجاني أبي أن أغير الحقوق واختار كلية أخرى قريبة من بلدنا فأبي لا يستطيع أن يتحمل مصاريفي في القاهرة لتكن كلية التربية مثلا لأنها قريبة لكنني رفضت، وتحت إلحاح شديد اخترت حلا وسطا أن تكون كليتي هي (الآداب) وتمت مشيئة الله وأصبحت طالبا بكلية الآداب قسم اللغة العربية، وبعد أسبوع واحد من بدء الدراسة وفرحتي بالجامعة، بدأت حرب السادس من أكتوبر ١٩٧٣، فتعطلت الدراسة.

في اليوم السادس عشر للحرب دعا السادات الى التعبئة العامة، فانخرطت في صفوف الشباب نتدرب على حمل السلاح انتظارا للذهاب الى جبهة القتال، أفهمونا أننا لن نحارب ولكن وجودنا سيكون لمهمات دفاعية بحتة. كان بيننا من لا يستطيع الامساك بالبندقية بالوضع الصحيح ظللنا نتدرب - آلاف الشباب - على الجري واستعمال البندقية التي تشبه بنادق الصيد!! ثم نجلس في معسكرات التدريب نتابع أخبار الحرب وتعليقات المعلمين الذين يدربوننا، ويبدو أن السادات قام بها كحركة اعلامية فقط لأننا انصرفنا الى بيوتنا بعدها بفترة بسيطة وتم وقف اطلاق النار بعدها.

وحين استأنفنا الدراسة بالجامعات جاءنا في العام التالي أحد القواد العسكريين وهو اللواء عبد المنعم واصل وقد راح يحدثنا عن آلاف الملائكة الذين ارتدوا الأثواب البيضاء وكانوا يحاربون معنا. ضحكنا وسخرنا منه في المدرج فما كان من الرجل إلا وشعر بالاحراج الشديد وبدلا من أن يتراجع عن خرافاته أقسم بالله أنه رأى الملائكة تحارب معنا وكان يتصبب عرقا من هذا

المشهد الذي وضعناه فيه نحن الطلاب إذ لا سيطرة لأحد علينا وقد رفضنا روايته جملة وتفصيلا وصاح أحدنا «أمال لو كنا وحدنا دون الملائكة كان ايه تاني اتعمل فينا٠٠» وآخر: «ولماذا كانت الثغرة إذن؟! ألم تستطع الملائكة منع الاسرائيليين من الالتفاف حول جيشنا والوصول الى عمق أراضينا»؟!

لسوء حظ السادات أن الحرب لم تؤت بالثمار التي بشر بها جيلنا، وباتت الجامعات وجعا في قلب السادات، حالة من الاستنفار والقلق الدائم٠ كانت نصيحة أبي كل صباح: لا تشترك في المظاهرات، ليس لنا في السياسة يابن الـ٠٠ لا ناقه لنا أو جمل في هذا البلد، كلهم لصوص، لو اشتركت في المظاهرات وقبض عليك أمك طالق بالثلاثة ٠٠ وسوف أتركم بالشارع، ماشأننا نحن، دعنا نبحث عن لقمة العيش أولا٠ ولم تفلح تهديدات أبي ولا تضرعات أمي، وجدت في السياسة الها معبودا هيئ لي أنه الإله المنشود الذي أبحث عنه!!

كره جيلنا السادات كراهية عجيبة رغم أنه أعطى قليلا من الحريات وهو صاحب قرار الحرب الذي قلنا من خلاله للعالم أننا أحياء بعد، ورجال أيضا٠ ولكن السادات جاء بعد زعيم محبوب أحببناه من أغماقنا٠ فما يزال جمال عبد الناصر أغنية الوطن والثورة والعروبة في جيلنا حتى الآن، ويكفي - ونحن نعلم ذلك جيدا - أنه مات فقيرا كما عاش فقيرا - لم يضحك علينا بالشعارات رغم هزيمة ١٩٦٧ ومسئوليته عنها لم يخدعنا بالأماني الكاذبة٠ كنا مهزومين في ١٩٦٧ وكل السلع متوافرة والحياة شبه رخية وأما بعد ١٩٧٣ فقد ارتفعت الأسعار لمعظم السلع، وقفز اللصوص والحرامية والمنافقون الى مكان الصدارة واحتلوا مناصب رفيعة في الدولة، كانوا جوقة السادات، يقضي معهم معظم وقته، فانطلقوا كالكلاب الضارية على الأخضر واليابس في

مصر بعضهم تخصص في استيراد أطعمة الكلاب وقدمها للمصريين والآخر استورد أطعمة فاسدة منتهية الصلاحية، تسابق اليها الشعب الجائع لرخص سعرها، بينما انطلق الآخرون الى احتكار السلع الاستراتيجية الحديد والأسمنت والخشب يتحكمون في السوق ويفرضون الثمن والصنف والكمية. سماه السادات الانفتاح الاقتصادي ولكنه لم يكن كذلك كانت مكرا من السادات يغازل به الغرب الرأسمالي وأمريكا بالذات ولكنه كان أكبر عملية سطو وسرقة في تاريخ مصر القديم والحديث. لم يتركوا شيئا لم يتاجروا فيه، اغذية فاسدة أدوية لا تشفي ولها آثار جانبية ولعل هذا يفسر انتشار مرض الفشل الكلوي بمصر بصورة مزعجة ومرعبة. سياسيا لم يستطع السادات حتى هذه الفترة أن يحقق السلام المنشود وكانت اسرائيل تماطله وعادت حالة اللاسلم واللاحرب تطل برأسها من جديد وتوقفت معدلات التنمية وزادت البطالة وتزعزعت ثقتنا بأنفسنا نحن شباب الجامعات.

نشط التنظيم الناصري الذي كنت مسئولا عنه بالجامعة في ذلك الوقت، كما زادت فعالية الماركسيين الذين انضموا الينا لأن المعركة واحدة كما يقولون وفي ١٥ يناير ١٩٧٥ عيد ميلاد عبد الناصر قمنا بتعطيل الدراسة ومنع الطلاب من دخول المحاضرات. كان الحرس الجامعي قد تم إلغاؤه أيام عبد الناصر فظلت قوات الشرطة والأمن خارج أسوار الجامعة تريد أن تتدخل بينما وقف عميد الكلية «الشهم» في شرفة مكتبه يحذر قوات الشرطة والأمن من الدخول الى حرم الجامعة وانتهاكها، قال لهم انهم أبنائي ولم يفعل أحدهم شيئا منكرا .. كل ما هنالك أنهم يعبرون عن رأيهم وعن حبهم لبلدهم، كنا نذيع خطب عبد الناصر الذي صار العدو الأول للسادات وعقدته النفسية، ونظمت قصيدة وضعني زملائي فوق أعناقهم حتى أذيعها مع الحشود التي تظاهرت وما أزال أذكر بعضا منها:

سيدي الرئيس
قبل أن تخطب فينا، وتحدثنا عن سينا والزرع الأخضر
قبل أن ترفض أو تقبل
أو ترسم صورة وردية للمستقبل
أو تشرح ما معنى كلمة «يعبر»
حدثنا عن قطعة خبز، قطعة لحم
حتى لو كانت مما تبقى من فضلاتك
جعنا مولاي قد جعنا!!
قطعة خبز قطعة لحم
جعنا مولاي وتعبنا!!

طبعا أخذوني بعد المظاهرة ليلا حيث قضيت ثلاثة أيام في الحبس وبعد تدخّل أحد الأساتذة من أخذ التعهد على نفسه بألا أعود الى هذا الشغب مرة أخرى خوفا على مستقبلي، ونصحني أستاذي بالهدوء، فالمعركة مع النظام طويلة المدى وتحتاج الى القراءة والعلم لأنها أسلحة المستقبل القادم. وأشهد الحق أننا نعمنا كطلاب بحياة جامعية مفيدة وأفاض أساتذتنا في تدليلنا وتعليمنا أصول العلاقات السوية إذ كنا جميعا بلا استثناء، أسرى التربية الخاطئة والعادات السيئة والعقد التي ترعرعت في أجواء الكبت والتزمّت والحرمان، وللأمانة فقد بذل أساتذتي الأجلاء من العلماء جهدا طيبا معنا، تحملوا عنا كل شيء حتى صرنا أسوياء، لم يكونوا مجرد أساتذة يعطوننا العلم بل عرفوا بالفطنة مدى حاجتنا الى علم آخر هو «علم الحياة» ولأن القسم الذي ندرس فيه اللغة العربية وعلومها خاص بالمسلمين فقط فقد بدا لنا وجود «قس» بيننا يدرس معنااللغة العربية شيئا عجيبا حقا، وكان كثيرا ما يتعثر في الدراسة إذ حصل على لبسانس الآداب بعد سبع سنوات كاملة وكان يعزو ذلك الى تعصب الأساتذة ضده وعدم اقتناعهم بضرورة دراسته للغة العربية، ويجوز أن بعضهم كان كذلك بالفعل ولكن غالبيتهم كانوا لا يفرقون بين هذا أو ذاك لأنهم

الرعيل الأول من الأساتذة الذين رضعوا وأخذوا مباشرة من رائد التنوير والفكر طه حسين، كما أنهم كانوا مسلمين بالاسم فقط، أما ضعاف النفوس والمتأسلمون الفارغون من العلم فلا أستبعد شيئا من ذلك التعصب الأعمى. ان العالم الحقيقي لا يتعصب إلا للعقل والعلم وأما غير ذلك فهو بحث عن أسباب أخرى يكمل بها ضعفه وقلة علمه وضلال عقله.

أما عن الحالة في مصر في تلك الفترة، فحدث ولا حرج. كان كل شيء يباح في مصر حينئذ وانتشرت بين التجار في ذلك الوقت مقولة مهمة «اذا لم تغتن في عصر السادات فلن تغتني أبدا!» أصبح دخول كلية الشرطة رمز الوجاهة والسلطة لطبقة الأثرياء الجدد - بالرشاوى ودفع المعلوم. وخربت الضمائر وفسدت الذمم وبدا الاضطراب أحد السمات الأساسية في الواقع المصري. في هذا الجو المشحون بالتوتر أراد السادات أن يمارس هوايته، في التمثيليات التي أجادها، فأقدم على حماقة كبرى تحت ستار الديمقراطية وأن عهده أفضل من ديكتاتورية عبد الناصر، فقد أخرج الثعابين من جحورها وأطلقها على البشر ومن يومها ومصر تعاني معاناة مريرة، لقد أخرج المسجونين من تنظيم الاخوان المسلمين أخطر تنظيم سياسي نشأ قبل الثورة على يد مؤسس الجماعة الشيخ حسن البنا. أفرج عنهم وهم قوة لا يستهان بها ذات تأثير في المجتمع المدني وقد أراد بفعلته أن يلتهم بسمكته الكبيرة كل الأسماك الصغيرة التي تكرهه وترفضه وتنشر مقالاتها في مجلات الحائط تسبه وتنتقد كل شيء فيه، وظن - وهو مصيب في ظنه - أن الجماعات الاسلامية ستقتلع الناصريين «أعداؤه الأشداء» والشيوعيين الذين كانوا يبغضونه بغضا شديدا.

نسى المصريون عبد الناصر واجتمعوا حول مرشد الاخوان المسلمين الجديد، عسى أن يخلصهم من ظلم السادات وعصره الأسود الذي عانى منه الفقير والضعيف، ولم يستطع السادات

التراجع فاعاد لهم مجلتهم ذات التأثير الواسع المدى «الدعوة»، وعمت البلاد موجة تأسلم جديدة، فبدأ الحجاب يغزو الشوارع ثم رويدا رويدا عاد «النقاب» بين مجموعة غير قليلة من النساء. نعم انتهت مشاكل الناصريين والشيوعيين مع النظام ولكن بدأت مشاكل جديدة وعنيفة لم يتوقعها السادات الذي دفع حياته ثمنا للجريمة التاريخية بافساح المجال أمام الفتنة والتعصّب أن تطل برأسها من جديد.

عمّت الفوضى الجماعات الاسلامية ذاتها واختلفوا في الزعامات والأفكار الهدامة وتوزيع الغنائم والشعب المسكين المحب لله الباحث عن الخير والأمان ولقمة العيش الشريفة يجري ويلهث خلفهم عسى أن تنصلح أحوالنا .. وظهرت جماعات ضد الجماعات. وانطلقت بعض الفرق من «بلدي» حيث اتخذوا من جبال شرق النيل مأوى لهم بعيدا عن العيون، وقد حضرت أحد اجتماعاتهم وهم المجموعة التي سمت نفسها فيما بعد بتنظيم التكفير والهجرة، تكفير كل المسلمين الذين يرضون بالحاكم الظالم الذي لم يحكم بما أنزل الله والدعوة الى ترك هذه الديار والهجرة الى أرض أخرى حتى يصبحوا أقوياء بالعدد والعدة والمال ويأتون لاقتلاع الشر واستئصال شأفتهم والانتقام من أعداء الاسلام جميعا ومنهم المسلم الذي لا يعتنق أفكارهم.

هاجرت جموع الشباب الى اليمن والسعودية وأفغانستان وباكستان لنشر الاسلام هناك وتقوية الجماعة ثم العودة لقتال الكفار في مصر. كما نشأ في هذه الفترة تنظيم الشوقيين الذي شهد صراعا حادا بين قائدهم - الذي اعتقل بتهمة اغتيال الشيخ الذهبي - طارق الزمر وبين أمير جماعة الجهاد الشيخ عمر عبد الرحمن المحبوس في أمريكا الآن، أعلن طارق من السجن أنه لا ولاية لضرير - يقصد الشيخ عمر عبد الرحمن - فرد الآخر بنفس القوة ولا قيادة لأسير، يقصد طارق المحبوس مدى الحياة،

وتنظيسات أخرى حاولت أن تجد لها نصيبا من الكعكة، مثل التوقيف - الجماعة المحمدية - شباب الاسلام وغيرهم.

عادت السجون تفتح أبوابها من جديد، واكتظت بالآلاف وأصدرت السلطات قانونا يسمى قانون الطوارئ ويتم بموجبه اعتقال أي شخص مشتبه فيه لمحاولة ايقاف تزيف الموت والقتل والتخريب. ولم تمتد الأيدي الى هؤلاء الشباب لهدايتهم وردعهم وانقاذهم من الكفر والضلال، وزادت حدة الصراع فتم تدبير حوادث اغتيالات كثيرة من أهمها الدكتور فرج فودة صديقي الطيب والدكتور ورفعت المحجوب رئيس مجلس الشعب وبعض قيادات الشرطة. والشيء المرعب حقا أن هذه الجماعات استحلت دم النصارى فإما أن يؤمنوا أو يدفعوا الجزية بنص القرآن حيث يقول «قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب» أي النصارى - حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون» التوبة ٢٩. وبموجب هذا النص الصريح عادت الفتنة تطل برأسها فبدأت الاعتداءات على المسيحيين ديارهم وكنائسهم ومتاجرهم وحياتهم، واشتعلت نار التعصب المرعب وأخذت تأكل كل ما في طريقها ووصل الأمر بالجماعات المتشددة أن بعض عائلاتهم اعتبرت كافرة وتستحق القتل لأنها لا تدين بفكر الجماعة.

هاجمنا السادات في خطبه إذ كنا نفضح تمثيلياته ونكشف عن ألاعيبه وبدأ الوحش الذي أخرجه السادات من مكمنه يخرج عليه هو ثم يفترسه أخيرا بمقتله في السادس من أكتوبر عام ١٩٨١ وسط جيشه وقواته وحرسه وآلاته الحربية. دفع الثمن لأنه لم يستطع السيطرة على الفوضى التي شاعت في المجتمع.

لعل هذه الأيام من أخطر فترات مصر في تاريخها المعاصر، لقد تعرضت لبلبلة شديدة لم تعد تعرف معها أين الخطأ من

الصواب وأيهما على حق، هذه الجماعات التي ترفع شعارات الفقراء وتقدم حلولا بسيطة لهم كأن توزع عليهم اللحوم بأسعار زهيدة، وفي مواسم الأعياد والمدارس توزع عليهم مواد التموين مجانا؟ أم الحكومة على حق حين تحارب فكر هذه الجماعات وتفند آراءهم المريضة؟ معظم المصريين من البسطاء كان قلبهم مع الجماعات الاسلامية لأنها أمدتهم بالحاجة وعزفت على أوتار الجوع والبحث عن لقمة العيش ولكن سيفهم مع الحكومة التي أوقفت الى حد ما خطورتهم وتهديدهم لوحدة عنصري الأمة.

كانت كل عائلة مصرية تقريبا تعاني من هذا الوباء أن يكون لها ابن ضمن الجماعات المتشددة اما داخل المعتقلات يتعرض للتعذيب والموت أو ابن خارج المعتقل مطلق السراح ولكنه يسبب لأهله أذى أشد ضراوة من المعتقل، فهو يكفّر أباه وأمه وأخوته ولا يأكل معهم أو يرفض أن يصرفوا عليه فمالهم حرام لأنه من الحكومة الظالمة، ومنهم من يترك المدرسة أو الجامعة ويذهب ليشتغل بيديه عملا بحديث رسول الاسلام «بارك الله في رجل يعمل بيديه» أو يرفض أحد الشباب الوظيفة ويمتنع عن الذهاب الى العمل لأن النظام كافر والمال حرام، وعليه أن يبحث عن مال آخر لم تلوثه يد الحكومة الكافرة، كنت تجد الطبيب والمهندس ملتحيا بجلبابه الأبيض يبيع حلوى «العسلية» في الشوارع والحارات أو يفتح «كشكا» صغيرا لبيع الحلوى والصابون والأدوات الكتابية. كان في كل بيت مصري مناحة ومأساة والكل يدعو على السادات الذي أخرج الثعابين من أوكارها.

أما الكتاب والساسة والمنافقون فراحوا يطمئنون الشعب، هذا ثمن الديمقراطية علينا أن نتحمل الثمن الباهظ لها حتى يأتي يوم نتعود فيه على الحرية ونتخلص من هذه الأفكار السوداء. كم من القرى والأحياء تعرضت لحرب حقيقية، قوات ضخمة من جنود «الأمن المركزي» هي عبارة عن جيش آخر أعده النظام لحماية

نفسه من غضبة الشعب الثائر والخارجين على النظام. وفرد الأمن المركزي يشترط فيه أن يكون جاهلا حتى ينفذ الأوامر ويتعلم الطاعة العمياء. وكم من أفراد من الأمن المركزي حين تعلموا، أو بدت على أحدهم مظاهر التعقل واستخدام الذكاء والوعي فيتم فصله فورا لأنهم فقدوا شرط هذه الوظيفة أن يكون انسانا متبلد المشاعر جاهلا لا يفهم سوى تنفيذ المهمات المكلف بها. ومن الطبيعي أن يدفع المسيحيون ثمنا أكبر لأنهم الأقلية حتى مع التسليم بوجود المتعصبين بين صفوفهم، لكن المحصلة النهائية كانت تشبه حرب منظمة ضدهم. فانتشر الخوف والهلع في أوساطهم وباتوا يعودون الى ديارهم مبكرين ويحكمون اغلاق بيوتهم ومتاجرهم، وهاجر من استطاع الى ذلك سبيلا، ضمانا للسلامة، ورفض بعضهم أن يترك وطنه، ودافع عن حقه في الحياة وفي حرية العقيدة. وكثيرا ما تعرضت محلات الذهب - التي غالبيتها ملك للمسيحيين - الى السلب والنهب وقتل أصحابها وكانت الجماعات تنفق من حصيلتها في شراء الأسلحة ومساندة أسر المسجونين منهم، وتوفير المال للمجاهدين المسلمين في كل البقاع التي وصلوا اليها.

كان المسيحيون يتعرضون لظلم من جانب النظام وحرب ابادة من جانب المتشددين وكثيرا ما كانت عزائمهم تخور ويضطرون الى لزوم مساكنهم انتظارا للفرج من الرب الجبار ..

مع هذه الأحداث جاءت زيارة السادات للقدس في محاولة منه للخروج من العزلة، وبحثا عن فيلم جديد يمثله ويلعب بطولته، فقد كانت حركة مسرحية غربية رحب بها العالم المحب للسلم، ولكنها لم تجد صدى يذكر بين الجماهير. فكان الوضع في «الداخل» مضطربا والمعاناة تزداد وأجهزة الاعلام تغازل الفكر الاسلامي المتشدد والحكومة ضد المتشددين في الظاهر ومعهم في السر.

بدأ النظام يفاوضهم ما هي طلباتكم حتى ينتهون من أعمال العنف والقتل اذا كانوا يقومون بأعمال انتقامية ضد أفراد الشرطة والجيش على السواء شبه يومية ينصبون كمينا يقتلون فيه كل الذين تصادف وجودهم في المكان وكم من أبرياء راحوا دون أن يقترفوا إثما أو يفعلوا منكرا ولكنها الفتنة بدأت تعم البلاد، لذا لم يتعاطف الشعب مع حركة السادات كان الشعب مشغولا بمعاناته العصيبة من كل اتجاه. فهو يفتقد الأمان والسلام الداخلي وتوفير فرص عمل لملايين العاطلين ومحاربة الجهل والتطرف والأمية والأمراض التي تسببت فيها مجموعة لصوص الحكومة. كان آلاف الشباب يتخرجون من المدارس الحرفية الصناعية ومن الجامعات ويظل قائما في بيته دون عمل انتظارا للحكومة أن توفر له فرصة عمل - كما هو شأنها - وسوق الأعمال الحرة مكتظ والشباب غير مدرب على احتياجات سوق العمل في عصر الانفتاح .. أصبح كل شاب قنبلة موقوتة في بيته إما أن تنفجر فيلتحق بالجماعات الاسلامية التي تحل له جميع مشاكله وتتولى الانفاق عليه وتمده «بالعزوة» اذا كان فقيرا معدما من عوام الناس وتصبح له عائلة كبيرة من الجماعات ذوي الحيثية، وتزوجه احدى المؤمنات المحجبات التي لا تبتغي من الدنيا شيئا غير رضا الله!! أو يصبح الشاب مدمنا يجد نفسه مع أردأ أنواع المخدرات وأرخصها والتي تؤدي غالبا الى الموت في الوقت الذي بدأت الحكومة تخفف من قبضتها على هذه الأنواع ليجد الشباب نوعا من الحلول بدلا من ازعاج الحكومة.

لم تفلح السياسة معي ولم تشف غليلي فهي لعبة قذرة لا تستطيع أن تجد فيها الحق والخير والجمال، كان الله ما يزال مجهولا رغم بعدي عن التيارات المتشددة ورفضي التلقائي لها الا أن الجو كان دائما ملبدا بالغيوم والمآس. كنت أحب الموسيقى والمسرح وأصبحت مسئولا عن النشاط الفني في اتحاد الطلاب لجامعتي فاذا بالأخوة المتشددين يتعقبونني ويهددونني أنت تنشر

الرذيلة وتحارب دين الله بلجوئك الى المسرح والغناء والموسيقى. لأنها آلات الشيطان تلهي المؤمنين عن العبادة. كم من حفلات موسيقية أوقفوها وضربوا الحضور من الطلاب والطالبات وأسرهم. وكم من مسرحيات تدخلوا في «البروفات» قبل أن تعرض وأفشلوها!! وانتشر الفن المضاد أو ما سمي بالفرق الاسلامية التي تنشد على الوقوف أغاني اسلامية تتحدث عن الجهاد وحب الرسول «ونحن جند محمد»!! كان أمرا عجيبا أن يتأسلم الفن كذلك. الفن لغة راقية عالمية لا وطن لها ولا دين ولا لغات، انها لغة كل البشر الفن أبو اللغات وقبل اللغات. كان الفن هو حركات الاستغاثة الأولى الصاعدة الى السماء بحثا عن الاله لشكره، لكنهم لا يفهمون، فهذا عرس اسلامي يسمحون به ويحرسونه «بالبلطجة» وهذا غير اسلامي مخالف للشريعة فيتدخلون يخربون العرس ويعذبون الناس فتتفرق!! كنت تجد مشهدا مألوفا عريس وعروسه في أبهى صورة يحتفلون بزفافهم تحت حراسة الشرطة والأمن المركزي حتى يستطيع أهل العروسين اظهار فرحتهم بالموسيقى والغناء. كان يلزم أن يذهب العريس لاستخراج تصريح باقامة حفل عرس بالموسيقى والغناء حتى توفر الشرطة امكانيات الحراسة والمراقبة والحماية كذلك كان خروج المرأة سافرة - دون حجاب - نوعا من المخاطرة الجسيمة فإما أن تعود الى بيتها بعاهة أو لا تعود على الاطلاق، وبدأت نغمة جديدة على الواقع المصري في الظهور هذا زي اسلامي، وهذه متاجر اسلامية وذاك فرح اسلامي أو مدارس اسلامية الخ..

ماذا يفعل جيلنا وسط المأساة. كان المتميزون منا ينكفئون على ذاتهم ينشغلون بالقراءة والتأمل والبعد عن هذا الجو المسموم، أما العامة والبسطاء والذين غيّبوا عقولهم فقد ساروا في «المولد» بحثا عن «الحلوى» أحيانا، وخوفا وجبنا من الجماعات أحيانا أخرى حتى انحسر المد المتدفق نحو الهاوية فعادوا الى سيرتهم الأولى.

أتاحت لنا هذه العزلة التي فرضت علينا نحن الذين نرفض هذه المظاهر الظلامية، أن نقرأ ونتعلم وندرس حتى تخرجنا ونحن في مستوى أفضل من بعض الأساتذة الذين كانوا في الجامعة في ذلك الوقت. وبالطبع فإنني من عائلة بسيطة لم أجد لي عونا في أن أصبح معيدا بالجامعة وأخذوا بدلا مني أبنة أحد المسئولين بالأمن ورضيت بنصيبي واستلمت العمل مدرسا للغة العربية الى حين. كانت أعماقي تحدثني أن مكاني في الجامعة وليس بين التلاميذ الصغار، ولم أحب العمل لأنني امتلكت أسلوبا أدبيا بدأ يبين عن نفسه ولم أستطع أن أصل الى عقول الصغار فجاهدت في حضور محاضرات الدراسات العليا.

وما أزال أذكر نكبة الجماعات الاسلامية على عقلية من أفضل الذين قابلتهم في حياتي .. كان شابا بسيطا مثقفا ثقافة موسوعية غير عادية، كان بعض الأساتذة يتجنبون مناقشته لأنه يقرأ ويعرف أفضل منهم، وانزلق هذا الرائع الى هاوية الفكر الظلامي المتشدد فأهمل مذاكرته وكليته وبالرغم من ذلك كان الأول مكرر على دفعته، أما الأولى فهي زميلته التي يحبها وتحبه بطهارة وعفاف كانا حديث الجامعة كلها في أدبهم ومظهرهم الراقي ومشاعرهم الفياضة، لكنه بعد أن تغير عقله وصار ضمن الجماعات جاءها ذات يوم بآيات من القرآن يطلب من زميلته رفض العمل في الجامعة وأن تظل في بيتها أما فهو فسوف يرفض العمل في الجامعة لسبب آخر هو أن الجامعة كافرة ويجب عليه أن يبحث عن عمل لا تعطيه الحكومة مرتبا فيه، ورفضت زميلته بالطبع وجاءها بآيات القرآن «وقرن في بيوتكن لاتبرجن تبرج الجاهلية الأولى» وقالت هذا كلام موجه الى أناس عاشوا منذ ١٤٠٠ سنة وكيف لي بعد هذا العلم والطموح أجلس في بيتي أنتظر عودته بالسلامة!! وكرهت هذا الفكر الذي أطاح بأروع قصة حب شهدتها في حياتي وأبعد عن الجامعة عقلية جبارة كان يمكن أن يكون بكل تأكيد طه حسين آخر ..

كرهت هذا الاسلام الذي حطم الزهرات البريئة والروح الجميلة وأصبح من هذه اللحظة فكر معطل للحياة يمنع التقدم ويطالب بالعزلة والفشل والضياع. ارتبط لدى هذا الفكر بالعصور الوسطى وبالجاهلية الأولى حيث لا منطق ولا فكر ولا أمل ولا طموح. ولا حياه» الإسلام هكذا أصبح الضد لهذه الحياة.

كان هذا الاكتشاف مؤلما في أولى تجاربي الحياتية، خطواتي الأولى على سلم الواقع ومجابهة الحياة. ومن ثم رضيت بعملي مدرسا للغة العربية بقرية صغيرة - فأنا أفضل من غيري - وبعد الظهر أذهب لمحاضرات الدراسات العليا، لم يكن المرتب الذي أستلمه من المدرسة إلا جنيهات معدودة أتاحت لي أن أشتري الكتب وأصمم أن أحفر الصخر حتى أجد مكاني استاذا بالجامعة مهما كانت التضحيات، ولم تتخل عني أمي - باركها الله - من القليل الذي ورثته - وكان كثيرا في ذلك الوقت - ساعدتني حتى أصبح دكتورا وتناديها جاراتها «بأم الدكتور».

في هذه القرية التي بدأت العمل فيها مدرسا كان الغالبية من أهلها من المسيحيين. وبدأت لأول مرة اختلاطا حقيقيا بهم. كانوا يحبونني لأنهم لمسوا في روح التسامح والمحبة، أعجبني وكيل المدرسة كان في أول حياته قسا، كنا نتغدى معا ونتكلم عن الحب والايمان العميق بالله لكنه لم يجرؤ في مرة أن يحدثني عن المسيح. كنا نتبادل الكتب ولكنه لم يأت في مرة من المرات بأي كتاب عن الدين المسيحي كغالبية المسيحيين في مصر امتاز بالحذر الشديد بالرغم من صداقتنا الوطيدة، ولكني لم أنس حلاوة حديثه وجمال أسلوبه ورقة طبعه وكيف أنه علمني كيف أدخل الفصل الدراسي وكيف أدرس، كنت بحاجة الى الهدوء والرزانة لا الاندفاع العاطفي والمثالية الفكرية التي لم تكن في ذلك الوقت. فقد أوقفني على قدمي وساعدني وأكثر من مدحي عند مفتش اللغة العربية البغيض الذي لم أحبه أبدا.

لعل مفتش اللغة العربية كان يغار مني، فهو تقليدي في كل شيء لا يؤمن بالحداثة أو الجديد حتى لم أكن أعجب سيادته في ملابسي!! كنت أصطدم معه دائما ويتحدث معي في أشياء عفى عليها الزمن، كان شعاره البغيض «من حفظ المتون حاز الفنون» قلت له ان الفن والرقي لا يتأتى بالحفظ، لسنا ببغاوات لنحفظ ونعيد الأشياء بعينها، نحن نحتاج الى العقل والى اعمال العاطفة حتى لا ينفر التلاميذ من اللغة العربية. وبدأت أحب عملي لأن التلاميذ في عمر الزهور كانوا في حاجة ماسة اليّ. قلت لنفسي لو احسنا تربية هذا الجيل وتعليمه لأمكننا أن نقضي على مظاهر التخلف والتعصب والضلال.

في هذه الأثناء حدثت الانتفاضة الكبرى للجماهير المصرية وهي أحداث ١٨، ١٩ يناير ١٩٧٧ لقد خرج الشعب كله يجأر من الظلم، ينادي بسقوط الحكومة ورفع المعاناة عن كاهل البسطاء والتراجع عن زيادة الأسعار لمعظم السلع، وقد سماها السادات «انتفاضة الحرامية».. فزعم السادات أن الذين تصدروا الانتفاضة لصوص وبلطجية وموتورون من الأغنياء ومن ثم كان دافعهم الحقد، وقال ان الحقد لا يبني لكنه يهدم، وسمى نفسه كبير العائلة المصرية ودعا الى احترام الكبير والعودة الى تقاليد القرية المصرية التي تقوم على الحب والتسامح ونبذ «العيب» - استن السادات حينئذ قانونا أسماه: قانون العيب - لكن أين الحب؟ أو كيف ينشأ الحب وأنت ترى الفقير يزداد فقرا واللصوص الذين التفوا حول النظام صاروا في شهور قليلة أكبر مليونيرات.

من أين لك هذا: اسم لقانون يتم بمقتضاه محاكمة أمثال هؤلاء الذين صاروا أثرياء جدا في مدة بسيطة فيسألهم القانون من أين لكم هذه الثروة وما هي مصادرها؟ ومتى تكونت وكيف تم ذلك كله بغمضة عين؟! عطل السادات هذا القانون الذي كان كفيلا بردع

اللصوص المتاجرين في قوى الشعب بتقديمهم الى المحاكمة وتجريدهم من ثروتهم، كانوا في ذلك الوقت قد ازدادوا وانتشروا كسرطان يأكل جسد مصر وخيرها .. لكن كيف لا يعطل السادات قانونا سوف يوقع عائلته والمنتفعين من حوله بين براثن القضاء، وربما يكون هو نفسه أولهم؟! لقد منح السادات عائلته واخوته والمقربين منه صكوكا يتم بمقتضاها بيع مصر، ولم يترك للشعب سوى القدر اليسير، كانت المعاناة مريرة لكن الجماهير الغاضبة وضعت أرواحها على أكفها وخرجت تعلن غضبها ولولا نزول الجيش النظامي الى العاصمة لما أمكن السيطرة على ثورة الجياع.

كنت أراقب الأحداث، أنفعل بها، أتألم لما تواجهه أمتي من صنوف الهوان والتشتت والضياع، حاولت الاقتراب من جديد من الدين ولكن السماء أغلقت أبوابها تجاهي، أبحث وأقرأ وأصل الى اللامتناهي وأدخل دائرة الحيرة من جديد. صراعات عنيفة وأحداث دامية، وبحث عن الله، في هذه الأثناء أمكن لي أن أترك المدرسة وأعمل بالجامعة معيدا، وتم تحقيق الحلم الذي جاهدت لأجله طويلا كذلك كنت أستعد لمناقشة رسالة الماجستير في فبراير ١٩٨١.

انتهت تقريبا الحيرة تجاه الله .. كنت مجرد جسد بلا روح يصلي ويقوم بالشعائر دون احساس حقيقي بالراحة، حسمت الأمر وقلت انني أعمل ما أستطيع فاذا كان هو حقيقة فقد فعلت ما علي تجاهه، انصرفت الى العلم والايمان بالعقل المجرد والانحياز الى الاتجاه العلمي في الحياة والمعتقدات واذا كان الاسلام يصادر حريتي ويعلن في آياته «يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء ان تبد لكم تسوءكم» إذن فلنغلق هذا الباب ولنشتغل بالعلم، ذلك أفضل جدا.

كانت أحداث الفتنة الطائفية الخبر الأول في اذاعات العالم في هذا الوقت الذي أخفي أعلامنا الحقائق عنّا، فكنا نطلبها من المصادر الأجنبية المختلفة. لقد جاء حسني مبارك في ظروف عصيبة بعد اغتيال رئيس الجمهورية واحتلال الجماعات الاسلامية لبعض المدن الكبرى بالصعيد وأعلنوا حينئذ قيام دولة اسلامية تطبق شرع الله. وكم حصدت من أرواح لا ناقة لها ولا جمل في هذه الأحداث، وبدأ مبارك عهده بمحاولة جمع شتات الأمة فأعاد البابا شنودة الذي كان السادات قد حدد اقامته وعين مجلسا من خمسة أساقفة مكان البابا شنودة الزعيم الروحي للأقباط في مصر،

كذلك أفرج مبارك عن كل المعتقلين من اسلاميين متشددين ومسيحيين وصحفيين واعلاميين واساتذة جامعة ورجال أعمال وبدا للناس أن عهدا جديدا على وشك البزوغ لكن بعد قليل خاب ظنهم في رئيسهم الذي يتسم بالتعقل والهدوء فلم يلبث أن جمّد كل المشاكل وضعها في ثلاجة وأرجأ المشكلات الصعبة التي لم يستطع مواجهتها وتركها للزمن ولكن الزمن لم يتركه فعادت الجماعات المتشددة بعد فترة ترقب وهدوء لم تزد عن شهور قليلة وكانت أشد عنفا وأكثر فتكا مما دعا النظام حينئذ الى المساومة والوصول معهم في حوار نقلت الاذاعة والتلفزيون جوانب من هذه المناظرات ولكن رد الفعل كان أسوأ مما هو متوقع، إذ اكتسبت الجماعات المتشددة نوعا من الشرعية والثقة في تحركاتها وبدت كأنها سلطة أخرى في المجتمع تناوئ السلطة الشرعية والبلاد، وصارت الجماعات مصدر خوف للكثيرين فلا تستطيع أن تختلف مع أحد الملتحين أو تأخذ حقك منه فالجماعات تسطو عليك كالجراد وتؤدبك ولا تتركك إلا شبه ميت وقليلا ما يتدخل الأمن في هذه المشاجرات بدعوى أنها خلافات عائلية مع أنها ليست كذلك، لكنهم يؤثرون السلامة وعدم التعرض لهم حتى لا ينتقم المتشددون منهم.

صار للجماعات وجود أكبر وشرعية أمتن من ذي قبل بل ان ما أذيعه ليس سرا ويعرفه كل مصري ولكني أقولها بجرأة وأمري على الله. لقد أعطت الشرطة للجماعات حقوقا ليست لها وبالتالي جذّرت وجودها في الشارع والحارة وفي كل بيت مصري تقريبا. كانت الشرطة والجماعات المتشددة يتعاونان معا، وبدأ أن المتشددين أوصياء على البلد يعملون بدلا من الشرطة ويتولون مهامها وقد سعد بذلك بعض أفراد الشرطة وبعض قياداتها إذ استراحوا من الشغل والعناء والقضايا تأتيهم حتى عندهم جاهزة. وتولت الجماعات العمل بدلا منهم فقد كشفت عن أوكار الدعارة وتناول الخمور ولعب القمار وتعاطي المخدرات، وبالطبع صارت الجماعات المتشددة تستخدم ذلك السلاح في وجه أعدائها من الفريقين المسلمين الذين لا يؤمنون بأفكارهم والمسيحيين الكفرة!! ولم يجرؤ أحد أن يقف أمامهم، كانوا يأخذون السلع بالثمن الذي يحددونه ويؤجرون الشقق والمحلات بالثمن الذي يريدون. وكان صاحب البيت يشعر أنه أضاف الى ماله سلطة قوية تحميه وتدافع عنه اذا ما احتاج اليها.

وفي ظل حماية النظام قام النصابون بالاستيلاء على أموال الشعب البائس في شركات سميت شركات اسلامية لتوظيف الأموال وحتى يوفروا جوا من الشرعية على أعمالهم اللصوصية كانوا يعطون مكافآت مجزية لكل كبير في الحكومة ولكل صاحب قلم، في كشوف فاضحة سموها «كشوف البركة» أخفاها النظام لأنها تفضح أهله جميعا.

تحولت بعض الجماعات المتشددة الى عصابات تمارس أعمال البلطجة في حماية الشرطة التي استراحت لأن القضايا تأتي اليهم ولا تتطلب منهم مجهودا للحصول عليها.

وفي عام ١٩٨٣ حصلت على الدكتوراه وأثناء عملي وقراءاتي في المصادر المختلفة تأكد لي أن بعض كبار الكتّاب والشعراء

والمفكرين امنوا في السر بالمسيح ولكنهم لم يكونوا في حاجة الى إثارة مشاكل مع ذويهم فآثروا الصمت ولكنهم رحلوا عن الدنيا مؤمنين هانئين بجوار يسوع في السماء. بل ان ابطال المسرحيات التي كتبوها مثل مأساة الحلاج مثلا للشاعر الكبير صلاح عبد الصبور، صورت «الحلاج» في صورة المسيح، استعد من الذاكرة مشهد صلب المسيح وقارن ذلك بما كتبه الشاعر الكبير هنا:

تم صلب الحلاج على جذع شجرة – لم يكن الصلب معروفا في الاسلام – والعامة تحلقت حوله تشعر بالندم والحزن لأنها هي التي أسلمته الى يد الجلاد، تقول المجموعة: صفوفا صفا صفا / الأجهر صوتا والأطول / وضعوه في الصف الأول / ذو الصوت الخافت المتواني / وضعوه في الصف الثاني / أعطوا كلا منا دينارا من ذهب قان / براقا لم تلمسه كف من قبل / قالوا: صيحوا زنديق كافر / صمنا فرنويق كافر / قالوا: صيحوا فليقتل إنا نحمل دمه في رقبتنا / فليقيل إنّا نحمل دمه في رقبتنا / قالوا: امضوا فمضينا .. ص ٤٥٢ .. كذلك يعترف أحد مريديه:

أحببنا كلماته
أكثر مما أحببناه
فتركناه يموت لكي تبقى كلماته ص ٤٥٥

وفي دراما، الحلاج يسأل السجين الأول المحبوس: لماذا جاءوا بك؟ فيجيب الحلاج: ليتم المقدور، وهي اجابة المسيح في جوهرها على السؤال المؤرق لكثيرين. لماذا صعد الى الصليب وباختياره ؟

نعود الى الجماعات الاسلامية ..

قالوا لي: نحن قادمون الى الحكم ووعدني أحدهم – عندما تعاظم دوري وزادت مناصبي وكنت أرفضهم – أن أحتل منصبا

وزاريا إن أنا سكت عنهم، قالوا لي لا تكن معنا ولكن لا تكن علينا مطلوب منك «السكوت» فقط الصمت ولكني لم أسكت، وقد عاد حرس الجامعة الي داخل الجماعات وزادت سلطاته إلا أن الجماعات بدأت في الاستيلاء الحقيقي على الجامعات فاذا جاء وقت الصلاة في المحاضرة يوقفون المحاضرة بعنف ولا يملك الأستاذ الا أن يخرج معهم من المدرج، الا اذا أجبروه على الصلاة معهم. بدا الأمر هزليا وأصبحنا على شفا حرب وأصبحت الجامعات فريسة لهم ووقعت بالكامل تحت قبضتهم، كانوا يشكلون معظم اتحاد الطلاب، يتدخلون في المحاضرات، يعظون ويصلون ويعطلون الدراسة في الوقت الذي يعن لهم ذلك. ولا أريد أن أعلن عن نفسي ولكن كليتي من الكليات المتشددة جدا بل كان عدد من المتهمين بمقتل السادات ضمن طلبتها ولا يزال بعضهم في المعتقل حتى الآن.

الفصل الثاني

الطريق المسدود

عدت من الخارج بعد غيبة ثلاث سنوات في إحدى الدول العربية، وقد هالني مقدار التخلف الفظيع الذي أضحى عليه المسلمون هناك، ولأنني أحبهم لبساطتهم وطيبتهم وحسن استقبالهم للضيف فلن أقول عنهم إلا أنهم زادوا من المسافة التي أصبحت تفصلني عن الله – إله المسلمين.. وقد أبتلوا بمرض عضال انتشر في معظم الشعب مما نتج عنه خراب في البيوت وهجر الزوجات اللاتي تعرضن للظلم فبحثن عما ينقصهن في بيوتهن، وانتشرت الأمراض التي نتجت عن البلاء الأكبر الذي ظلوا يعانون منه حتى الآن. صورة أخرى تبعدك عن الإسلام، فالدين لم يردعهم ولم ينقذ بيوتهم المتهاوية ولا أموالهم التي بذلوها بسخاء مع هذا الشيء البغيض على حساب قوتهم وقوت أولادهم وحقوق نسائهم..

أضحت الأوضاع في مصر أقل حدة عن ذي قبل، وقد اشتقت الى كليتي وطلابي وجامعتي وكان استاذ الجامعة ما يزال يتمتع - الى حد ما - بمزايا عديدة في مصر، فهو يمارس عمله بحرية قد لا تتوافر للآخرين ولا سلطة لأحد عليه إلا ضميره، لكن الحكومة، بطريقة أو بأخرى، استطاعت الالتفاف على النظام الجامعي، فتدخلت في تعيين رؤساء الجامعات والعمداء وحتى رؤساء الأقسام وخضع المسئول كبيرا كان أو صغيرا في السلك الجامعي لضغوط أصغر ضابط بأجهزة الدولة. وأما حرس الجامعة فليس عمله فقط حفظ النظام وانتظام العمل داخل الجامعة ولكن من أهم أولوياته التجسس على الأساتذة ومراقبة أفكارهم وكتابة التقارير بشأنها. وصار هم الجميع ليس خدمة الوطن والا كانوا قد استطاعوا القضاء تماما على التطرف

والتعصب الديني ولكن الهم الأكبر هو حفظ كرسي النظام والابقاء على حياة «الأوحد».

لمصر أنظمة أمنية متقدمة وأجهزة رقابية ليست هينة، فما عمل هذه الأجهزة؟! ولماذا لم يكرسوا جهدهم كله للوطن والسلام الاجتماعي؟! وجيش الأمن هذا لم يستطع حتى الآن أن يبرز دوره فيما يتصل بالشارع. ان أقل سلوك منضبط مطلوب مثلا هو احترام اشارة المرور ولكن في مصر لا تجد أحدا يسألك لما فعلت هذا؟! لأنه ببساطة بعيد عن أمن الرياسة!!

كنت سعيدا أن أعلم أبنائي وبناتي، ولأرى عن قرب كيف يفكر هذا الجيل!! واندمجت مع الشباب وصرت سئولا عن أنشطتهم بتكليف من عميد الكلية، صرت أقضي معظم يومي بينهم، نقيم معسكرات العمل من أجل أن نرسي قيما اجتماعية وأخلاقية نتناول الغداء معا ونحكي في كل الأشياء التي تعّن لهم، وكلما اقتربت من صفوف طلابي زادت قناعتي باليأس من المستقبل المظلم لهذه الأعداد الهائلة التي تتخرج ولا تجد لها عملا أو مسكنا أو لقمة عيش شريفة، واطلعت على ظروف أسرية يندى لها الجبين لطلاب وطالبات جاءوا من تحت خط الفقر يحلمون بالحصول على الليسانس وتغيير خريطة العالم وسرعان ما تخبو أحلامهم وتنطفئ شعلة توقدهم حين يرون زملاءهم الذين تخرجوا قبلهم بسنوات يعانون الأمرين. ولذلك كانت الجماعات الاسلامية المتشددة تتلقى هذه العقول الجاهزة وتبث فيها سمومها. كان الشباب حين يلتحقون بالجماعات الاسلامية يحل كل مشاكله تقريبا .. أولا تصبح له «عزوة» وعائلة كبيرة تعوضه عن فقر النسب ووضاعة أصله وبذلك ترضي غروره حين يشعر بوجوده داخل كيان كبير. ثانيا: كانوا يزوجونهم دون مهور أو شقة أو أثاث، وفي الغالب فان المهر هو حفظ سورة من سور القرآن يقدمها هدية لزوجته المسلمة التي تجد في هذا الزواج تحقيقا

لرغبتها للهروب من سن «العنوسة» خاصة وقد زادت معدلاتها في مصر أخيرا. ثالثا: توفير فرصة عمل أو على الأقل وجود عائد مادي إمّا بما يوزعه عليهم أميرهم من السلب والسرقة لمحلات الذهب أو المتاجر أو البنوك، أو من العمل في مشروعاتهم التي بدأت تطفو فوق السطح، كالمتاجر ومحلات الخدمات المختلفة. رابعا: قد يجدون للشاب أو الفتاة فرصة سفر الى بلاد البترول بشرط أن يرسل من مرتبه قدرا معلوما للجماعة الاسلامية. خامسا: اذا تم القبض على أحدهم فهو يضمن أن أهله لن يجوعوا بل ان الجماعة سوف تمد أهله بما يحتاجونه.

كنت أمام التحدي اما أن أنقذ أولادي وبناتي من هذه الأفكار المسمومة وإمّا أن أنبه الى الخطر بعقد الندوات التثقيفية والرياضية والفنية ومحاولة ايجاد قنوات شرعية ومعقولة لصرف طاقات الشباب وسماع مشاكلهم والبحث عن حلول قد تكون بسيطة. ولم تكن الغالبية العظمى من الأساتذة يعنيها الأمر كثيرا فهي اما معهم – مع الجماعات – بقصد الترويج لكتبه وانتشار اسمه وتحقيق أكبر عائد مادي اذ كانت الجماعات أحيانا تشتري الكتاب من الأستاذ وتتولى طباعته وتوزيه على الطلاب بسعر زهيد، واما فهو متشرنق على ذاته يلوذ بالقرار من الجامعة بعد المحاضرة هذا ان جاء الى المحاضرة أصلا، فكم من أساتذة يمكثون في بيوتهم بالعاصمة ولا يأتون الى محاضراتهم في الجامعات الاقليمية وقد يكتفي بعضهم بتكليف تلميذه المعيد بالدخول مكانه. في الوقت الذي يستولى فيه الأستاذ بدون وجه حق على المرتبات والمكافآت والساعات المكتبية وساعات تدريس زائدة ومكافآت اشراف ودراسات عليا وبدل ريادة وبدل تمثيل. هذا الكتاب بلاغ الى كل ذي عقل وضمير في مصر والعالم، أنقذوا شبابنا قبل السقوط المريع!!

وفي توزيع الكتب والمذكرات مقابل مبلغ يدفعه الطالب للأستاذ حدث ولا حرج .. تحدث عجائب وغرائب يندى لها الجبين. فإن

الأفاضل من حملة العلم – الدكتوراه – يلجئون الى حيلة بارعة في الخبث والمكر، حيث يترك في كل كتاب «كرتا» عبارة عن قسمين نصفه يعطيه للطالب مكتوبا عليه الاسم والتاريخ حين يشتري الكتاب والنصف الآخر يظل في الكتاب يحمل اسم الطالب حتى لا يستعير كتابا من زميله أو من المكتبة أو يلجأ الى تصويره .. كان فرضا على الطالب «الغلبان» أن يشتري في الفصل الواحد ما تصل قيمته الى خمسمائة جنيه وهي مبلغ كبيرا جدا بالنسبة للدخل العادي للمواطن المصري وكذلك بالنسبة الى كلية «نظرية» في الوقت الذي ترفع فيه الحكومة شعار مجانية التعليم. وبعضهم كان يشترط شراء الكتاب حتى يتمكّن الطالب من دخول الامتحان الأخير والحصول من الأستاذ على نسبة الحضور القانونية التي تسمح له بأداء الامتحان وطبعا كان الأستاذ يتحكم في هذه طبقا لمصلحة كتابه وحركة بيعه والدخل الذي حققه. أما الأب البائس الذي يتولى الانفاق على تعليم اثنين أو ثلاثة في الجامعة فإما أن يسرق ويمد يديه أو أن يمنع أولاده من دخول الجامعات. هذه حقائق أعرفها جيدا بحكم قربي من أولياء الأمور كانوا يفعلون الأعاجيب ويبيعون كل شيء وأي شيء ويبحثون عن ثمن الكتاب لهذا الأستاذ المتبختر بشهادته التي أشك في غالبيتها. لقد علموا الناس كيف يخفضون رؤوسهم ويسيرون في الطريق الخطأ دون أن يسألوا لماذا؟!

نعم أشك في غالبية الأساتذة في هذا الجيل نظرا للمستوى المتدني الذي وصلوا اليه ولم لا أشك وغير واحد منهم استغلني شخصيا أنا وزملائي ونحن نعد لدرجة الماجستير والدكتوراه وسرقوا أبحاثنا وأفكارنا بل كانوا يطلبون منا أن نعد بحوثا ونكتبها باسمهم ويعرف هذه القصة معظم أساتذة مصر لأنهم اما لصوص أو ضحايا!! كم من الكبار الذين يشار اليهم بالعنان أخذوا بحوثنا وكتبوا أسماءهم عليها ولولا الظرف الذي أنا فيه لسردت قائمة ببحوثي وكتبي الخمسة (لن أنساهم) وكتبوا باسم

«أ.د.» ليتقدم بها للحصول على درجة أستاذ مساعد أو أستاذ وكنا ضعفاء لا نستطيع أن نرفض فتقف دراساتنا ويضيع المستقبل. إنه عصر العهر، هذه هي التسمية الملائمة لما أصابني منهم بعد أن رأيت وعلمت وعاينت الحقائق. شباب بلا مستقبل، بلا أمل يعلمهم أساتذة ليس لديهم ما يعطونه، فوق ذلك لا أمانة علمية في أكثرهم. لو ضمنت لي رأسي سأذيع قائمة بأساتذة لا يستحقون اسم الدرجة التي يحملونها لا في العطاء والعلم ولا في الأمانة، كثير منهم يحول محاضرته الى حديث عن نفسه، عن جلالته وشرف عائلته وكرم أصله وعلمه الغزير الذي تتحدث عنه الركبان، وحين يأتي الى العلم - موضوع المحاضرة الأصلي - ينهي محاضرته عند أي سؤال من أي طالب لأنه لم يقرأ ولم يجهز للمحاضرة جيدا.

أصبحت الدرجات العلمية «أكل عيش» شهادة بدل فقر، وبطالة بعد أن كانت شرفا يحظى به الذين يحملونها، فضلا عن علمهم الواسع. ماذا تنتظر إذن من نتائج؟! لم يكف الأساتذة الفضلاء ما فعلوه في بلادهم فراحوا يخرّبون التعليم والذمم في بلاد البترول ورأيت بنفسي أحدهم يساوم أحد السعوديين على رسالة دكتوراه بسبعين ألف ريال... (يا بلاش) والماجستير بخمسين ألف ريال «فقط يا خسارة»!! ماذا تري؟! وهل ما تزال تتساءل عن سر البلاء الذي وقع علينا في مصر، لا جامعات ولا مؤسسات ولا شباب ولا... بالطبع فما تزال قلة - لكنها قلة نادرة - شريفة محترمة تبذل طاقتها لأجل الحق والخير والجمال وتهب نفسها لهذه الرسالة السامية.

ماذا يحدث أيضا في اللجان العلمية للترقيات، تدفع المعلوم ثم تجد بحوثك قد نالت الاستحسان فيتم ترقيتك لتصبح بعدها «حمارا» أكبر!!. كل ذلك شاهدته بنفسي، وأسألوا عنه أساتذة الجامعات المصرية الموجودين هنا، لن يفكروا بل سوف يعطون

معلومات وبيانات أكثر. لقد تم محاكمة أستاذ جامعي نشر كتابا عن فساد الجامعات، وتم فصله لأنه تجاسر وكشف الحقائق وتوقع المصير المظلم لوطننا، فأن تفسد بعض المؤسسات وتسير الأمور فهذا يمكن ويجوز، أما أن تفسد الجامعات دون أن تصيب الأمة بالشلل فهذا ما لا يمكن أبدا. انها عقل الأمة ومستقبلها وفكرها، فإذا زيفنا العقل وزورنا الفكر تعرضنا للمسخ والتشويه والانتهاء والفناء. رحمة الله عليك يا وطني المثقل بكل أنواع الأعباء من الاقتصاد والسياسة الى الضمائر الخربة والذمم الميتة الى الكفر والضلال الذي ترزح تحت نيره الأمة.

في هذه الأجواء المكفهرة بدا لي كل شيء أسود. حتى رؤساء الجامعات تتدخل «الواسطة» في اختيارهم، عقب انتهاء مدة عمل أحد رؤساء الجامعات من الشخصيات المستنيرة القادرة على الحركة والفعل جاء وزير التعليم ليفصل قانونا مخصوصا لكي يبعد هذا الأستاذ عن تجديد رئاسته للجامعة مع أن المدة الباقية له مع المعاش لا تزيد عن سنتين ولكن الوزير حين كان رئيسا لاحدى الجامعات كان هذا الاستاذ يضايقه كما أنه «شايف نفسه» كان التعليم والتعليم العالي في يد وزير واحد هو (ح – ب) الذي كان لا يحب الوزير الحالي للتعليم (م – ش) وكان هذا الأستاذ المقصود أقدم رؤساء الجامعات في ذلك الوقت الذي يرأس فيه جامعة القاهرة، ولما جاء الوزير أبعد هذا الأستاذ، رئيس الجامعة السابق لأنه تابع للوزير السابق ولا يحبه دون نظر الى نتائج ذلك على الجامعات، وقد أهمل انجاز الرجل وهدم أحلامه لأن «دمه ثقيل». لقد نظر الكبار الى مصالحهم الشخصية ولم يراعوا مصلحة الوطن.

اذا كان كل شيء ليس مضمونا في مصر، ولم تعد المؤهلات والشهادات والنجاح في العمل مقياسا للحصول على الوظائف المرموقة أو حتى الوزارة مثلا، ولكن ارضاء الكبار واستمالتهم هو أمل وطموح الباحث عن الوظائف العليا. ويتم ارضاء الكبار بأن

تمحو شخصيتك تماما ولا تظهر نبوغا وتبدي ضعفا ومذلة في الشخصية والطموح بل عليك أن «تتباله» - أي لا تفقه شيئا - فعندها تكون مرشحا لمركز مرموق.

وفي غيبة الضمائر ظهر على السطح مسؤولون ليس لديهم شيء يعطونه سوى رضا أصحاب السعادة عليهم. أي آمل تنتظره لبلدنا إذا كانت كل الأمور خراب؟!! لقد صار التفوّق والتميّز «سبّة» يجب أن تبريء نفسك منها والا فلن تجد الا الخوف منك والتآمر عليك والحقد والغضب، يجب أن تتظاهر بأنك لا تفهم شيئا أو تنفع في شيء مثلما فعل السادات تماما مع عبد الناصر، واختاره عبد الناصر نائبا له لأنه بدا له محدود الطموح ولا خطر منه، ومثلما اختارته مراكز القوى رئيسا للجمهورية للسبب ذاته. ان بمصر الآن قانونا وشريعة جديدة اسمها: لا أتكلم لا أسمع لا أرى، وإذا أتقنته ضمنت لك موقعا متميزا وتفتح لك أبواب المجد طريقيا وحذارى أن تبدي فهما أو وعيا بعد اختيارك في الوظيفة الأعلى، فسوف يغضب عليك سيدك الأعلى «فلكل وظيفة عليا من هو أعلى منها» حتى نصل الى «الأوحد» «رئيس الجمهورية».

هناك محافظ شهد له بالكفاءة، سار في محافظته سيرا طيبا وحقق في فترة وجيرة بعض الانجازات اسمه (م. ع.) وقد لمع اسمه في فترة قصيرة وأجرت معه احدى المجلات الشهيرة حديثا طويلا تنبأت في أوله بأنه وزير الداخلية الجديد القادم .. ولم يهدأ وزير الداخلية وقتها حتى حفر له حفرة واسعة ودفنه فيها وأطاح به سريعا .. والقصة كما سمعتها من أحد المسئولين أن صاحبنا المحافظ الطيب كان لا يحب المظاهر الخداعة وحسن الايمان ويذهب من القاهرة الى محافظته دون طاقم حراسة كان مخصصا له في سيارته الخاصة كمواطن عادي، وحتى اذا سار في الشوارع والأحياء صرف أفراد حراسته وسار على قدميه

واستغل وزير الداخلية ذلك وأوصى زبانيته في تلك المحافظة لاستغلال هذه الثغرة فتم رفع تقرير أمني الى الوزير الذي رفعه بدوره الى قياداته الأعلى ومؤدى التقرير أن المحافظ الهمام يعرض حياته للخطر وقد نصحناه فلم يرتدع مما يعرض حياته للخطر ويحرج النظام ويظهره بمظهر الضعف. وتلقى الرجل - بايمان.- قرار احالته على الاستيداع بينما كان في أحد اجتماعاته.

ليست الجامعة بمعزل عن الفساد والترهل الذي أصاب الدولة ومؤسساتها ولكن الخطورة أن الهرم من بدايته صار مقلوبا، ففي مرحلة الليسانس أو البكالوريوس توزع الدرجات ليس حسب مهارة الطالب وتحصيله للمواد الدراسية ولكن حسب قرابته ودرجة هذه القرابة من المسئولين أو أبناء الأساتذة أو ضباط الأمن. وكلنا يعلم القضية الشهيرة لوكيل طب قصر العيني - جامعة القاهرة حيث زورا نتائج أبنائهم دون مراعاة لضمير أو حق.

مع كل هذه الظروف المحيطة رسخ في ذهني أن أستاذ الجامعة نبي أرسله الله لهداية البشر وفتح العقول واعداد الشباب لرسالة التنوير والمدنية، تلقيت الرسالة مبتهجا في أولها، ورحت أعمل بأمانة وأحاول تحقيق المعجزات في هذا الجو الخانق للأمن وللأمان وللفكر، لكني كنت واهما متوهما، بحثت عن النتائج لتعبي المتواصل وأملي الذي احتضر فلم أجد شيئا لا زرعا أثمر ولا حصادا جاء. أصابني الاشمئزاز بعد أن اكتشفت أن وظيفة أستاذ الجامعة فقدت رونقها وبهجتها التي تسعد صاحبها، فاذا تمسكت ببعض المبادئ فان زملاءك يتضايقون منك بل يسخرون من قيمك لأنك تفسد الجو عليهم كأن تعطي مثلا كتبك مجانا للذين لا يستطيعون دفع ثمنها ويتهامسون ويتغامزون لأن فعلك هذا يشجّع الطلاّب ألا يشتروا الكتب والمذكرات في انتظار الحصول عليها مجانا فكلهم فقراء لا يستطيعون والذي أشعل النار هو أنا.

توسمت خيرا في بعض طلابي وقربتهم من نفسي ومكتبي، وانتظرت منهم خيرا للوطن، حاولت أن أبث فيهم قيم الكرامة والشخصية والحرية والعدل وحب الحياة والبحث دائما عن المثل الأعلى واحترام الذات والاعتزاز بالنفس، لكن الزملاء فهموا شيئا آخر فأنا أساعد الطلاب أن «يتبجحوا» في وجه أساتذتهم ويتصرفون معهم كما لو كانوا «رأس برأس»! أراد زملائي الأفاضل أن يمارسوا لعبة الذل نفسها التي مورست عليهم، وهم طلاب حين كان الأستاذ كإله لا أحد يقترب منه أو يناقشه لم يجربوا التسامح أو مدّ يدّ العون الى الغير أو المحبة التي يحتاجها هؤلاء الحيارى .. لقد أضحى الصراع على المادة هو الغالب في كل شيء، لا مبادئ ولا قيم ولا علم، حتى في تصرفهم مع الجماعات الاسلامية المتشددة، كنت تجد عجبا، ففي حالة سيطرة الجماعات على مقاليد الأمور تجد حضرات الأساتذة صاروا متأسلمين ويتحدثون بلسانهم، وحين تنحسر موجاتهم وتخسر الجماعات وجودها المؤثر يعود الأساتذة الى انتقادهم بل يتبرأون منهم وهم الذين كانوا في الزمن القريب لسان حالهم والمتحدث باسمهم في الجامعات، رأيتهم يغيرون جلدهم كل حين تمشيا مع المذهب الشعبي المصري الشائع «اللي تغلبه به العب به». صارت لعبة حواة: فهذا الأستاذ «القرد» الذي يأتي بأفانين وأعاجيب الحركات؛ فهو شيوعي قبل الثورة وناصري أيام عبد الناصر واخوان مسلمين أيام السادات ثم عضوا بحزبه وينقلب على السادات بعد موته ويعلن تأييده للرئيس عف اللسان النظيف - هكذا - محمد حسني مبارك!!

معظم من قابلت وعرفت من أساتذة لا طعم ولا لون ولا رائحه لا ينفع ولا يجدي في شيء. فسدت الضمائر ونعق البوم في خرائب الجامعات، ان لم تكن تصدق فاليك هذه القصة وهي مثال واحد وقد اخترته بعناية حتى لا يؤلم القرّاء وعندي الكثير، لأن الله أراني أشياء لم أتوقعها في فساد الجامعات والضمائر الميتة.

كان أحد أساتذتي الكبار يناقش طالبا في الدكتورا، مسكينا من أقاصي الصعيد، ويبدو أن الأستاذ المبجل طلب شيئا من الطالب الغلبان فقد رأيته يحمل كيسا ثقيلا أضنى ظهره قلت له أستاذ فلان ما هذا؟! - وكان كبيرا في السن - قال لي «كيلة» فول مدمس لأستاذنا، قلت له يابني الفول يملأ الدنيا هنا وما أرخصه. أتأتي به من أسوان حتى هنا؟! ما هذا التخلف؟! أجابني: شيئا أهديه الى أستاذي لأنني فقير وهذا الفول لم أشتره بل من زراعتي لقطعة أرض صغيرة أعيش من ريعها، هدأته وطمأنته على دراسته - لأنها كانت جيدة بالفعل - وبعد المناقشة وحصول الطالب على الدرجة العلمية، جرى العرف أن يدعو الطالب أهله مع أساتذته واللجنة التي منحته الدرجة، الى حفل غداء ولكني أشفقت على الطالب ودفعت ثمن الغداء بدلا منه، وكان هذا في نادي الجامعة وأعفيت الطالب دون أن يعرف أحد إلا موظف يعمل معي اسمه (س. ي).

ماذا يفعل هذا البائس اذا قدر له وصار أستاذا بالجامعة ودخل المحاضرات؟! ماذا سيقول لأبنائه الطلاب؟! لا بد أنه في أحسن الأحوال سوف ينتقم من أمثال هذا الأستاذ فيلقى علمه على الأرض ويبدأ في البحث عن المادة .. ولا بد أن تصيبه صرعة المال والكسب السريع ليعوض الحرمان والذل اللذين عاشهما. هذا هو حال الجامعات اليوم .. يا رب أعنًا!!

صار الشباب في هذا الجو غير الصحي منافقا مرائيا يرضع الأخلاق الساقطة وكأنها لزوم معركته القادمة مع الحياة.

أتذكر حادثة ذات مغذى تدلك على أن الشباب كان يفتقد المثل والقدوة وقد ساروا خلف الجماعات الاسلامية المتشددة عسى أن تحقق لهم بعض أسباب العيش أو تعبّر عن رأيهم غير الموجود أصلا لأن الشخصية انسحقت وتبعثرت أشلاؤها تحت نير

الحاجة. فقد تجمع الاسلاميون المتشددون وسار خلفهم عدد هائل من الطلاب وساروا في مظاهرة حاشدة تهتف: الله أكبر، الموت للعدو، الموت للخونة .. وبناء على طلب رئيس الجامعة لم يتدخل الأمن خشية أن يحدث ما لا تحمد عقباه لتفويت الفرصة على مخططهم الرهيب. فحين ينصرف الطلاب هربا من المظاهرة يفقدون تأثيرهم ويضعف وجود الجماعات المتشددة وقد كانت حريصة من وقت لآخر أن تستعرض قوتها لتؤكد وجودها وتأثيرها على الساحة وبالتالي تجذب الطلاب - غير المرتبطين بهم - الى حوزتهم. كانوا يريدون توريط الأمن وحتى يكون الدور مرسوما بعناية عليهم أن يغيظوا الأمن ويثيروا حفيظته فيتدخل ويقتل واحد أو اثنين لزوم تسخين المظاهرة وجذب أفكار الجميع. كنت مغتاظا حانقا، ألا يكفي مصر ما تعانيه يا ربي من كل الأمراض حتى يأتي هؤلاء ويقتلعوا البقية الباقية من أمل وينشروا السواد والظلام .....؟! دخلت الى قلب المظاهرة وهدأتهم قائلا: ماذا تريدون؟! لقد فوضني رئيس الجامعة لاجابة مطالبكم، إذ كانوا يصرخون يريدون السلاح حتى يذهبوا لتحرير أفغانستان وفلسطين - ماذا تطلبون؟! أجابوا السلاح والسماح لنا بالسفر من أجل الجهاد المقدس دفاعا عن شرف الاسلام، أجبتهم هذا حق، ونحن وافقنا عليه فورا، ولكن قبل السفر واستلام الأسلحة لا بد من التدريب وكتابة الأسماء لتجهيز جوازات السفر والله يوفقكم .. من يريد الجهاد فليذهب - وقلبي معه - الى مكتب قائد حرس الجامعة يسجل اسمه ويتفق معه على موعد التدريب على حمل السلاح ولنجهز له أوراقه .

انفضت المظاهرة، وبحثت عن المجاهدين وعن الأسماء فلم أجد أحدا .. تأكد لي أنهم نصابون، أفاكون، يبحثون عن الشهرة وبالضلال وقيادة الأمة نحو الخطر والعبث، بعقول البسطاء والمقهورين من أبناء الشعب. ألا يكفي هذا الشعب البائس ما يلقاه من أمراض؟! لقد سلبوا حقه في الحرية والعدل وتوفير لقمة

العيش ثم الآن يتركون الجماعات المتشددة تنخر كالسوس في عقل الأمة كي تقتله وتعبث به بأفكارهم الشيطانية.

فسد الجو تماما في الجامعات فاتجهت الى خارج أسوارها، جمعت شباب مدينتي وبتأييد من بعض الغيورين على مصلحة البلد، أنشأنا مركزا لتجميع شباب الجامعات محاولين إنقاذه من الفراغ القاتل ومن الأفكار الهدامة السوداء، حاولنا أن نشغل وقته ببعض المشروعات النافعة كمحو الأمية وتعليم اللغات والكمبيوتر وتنمية المهارات والهوايات.. استضفنا بعض البرامج الاذاعية الجماهيرية الشهيرة وأقمنا هذا الاحتفال في احدى المؤسسات المسيحية وسط أحداث الفتنة الطائفية. كنا نعرّي الأمن والأحزاب التي تركت المتشددين يفعلون ما يريدون بالعقول، فلو كان هناك اخلاص لأمكن مواجهة الأحداث ووأدها ولكن كثير من القوى في الداخل يهمها اضعاف مصر وابقائها على ما هي عليه حتى يسهل امتصاص خيرها وابتلاع ما تبقى.

لقد كشفنا حقيقة الدور المؤثر للقيادة الواعية للشباب، كان الأمن يرفض اقامة هذه الاحتفالية الكبرى في هذه المؤسسة المسيحية ولكن تمسكت برأي وقلت لهم سأكتب تعهدا على نفسي اذا حدث شيء فأنا المسئول!! انني أدرك طيبة قلب أهل بلدي ووداعتهم وحسن تمييزهم بين المخلص في عطائه والنصاب، ان معدنهم الأصيل يظهر هنا اذا بعدت التأثيرات المضللة عنهم، وحين أحست الجماهير بصدق عطائنا، التفت بنا وتحلقت حولنا بل أصبحت تشاركنا بايجابية في حماية دورنا وفي التصدي لأي دخيل يريد افساد منظومة الحب التي نعزفها. جاء أحد الضباط ونشر بعض قواته على أسطح الجيران ولكني حذرته ان فعل فعلته فأنا غير مسئول عن النتائج التي تترتب على تهوره.. قلت له أنت تريد أن تحرّض الناس ضدنا، ان الحاضرين هنا -مسيحيين ومسلمين- سوف يحمون الفنانين القادمين مع البرنامج

بأرواحهم، وكل فرد من الجماهير المحتشدة يشعر بمسئوليته فلا تعكر صفوهم ووحدة صفهم أرجوك. وبعد اتصال بالمسئولين الذين اقتنعوا بوجهة نظري أنزل الضابط قواته.

وبالفعل قام الشباب بنفسه بحماية احتفاليته وكان يشعر بروح المسئولية ولروعة ما تم ظلت الاذاعة تعيد البرنامج مرارا وتكرارا لتعطي الدليل على تلاحم أبناء الشعب الواحد ومحبتهم وهو دليل نجاح اذا خلصت الضمائر وحسنت النوايا فأنت قادر على صنع المعجزات.

كان نجاحا كبيرا كشف الثغرات في أداء أجهزة الدولة وبانت عوراتهم فلم يرض كبار المسئولين عن النتائج فتآمروا على من استطاعوا التآمر عليه وحجّموا قوتنا وخافوا على كراسيهم ورفضوا استمرارنا .. وانتهى مركزنا الكبير الى مجرد بناء يحتوي على مكتبة وصالة للألعاب الرياضية وصار رواده قلة من عابري السبيل. لا يريدون لهذا البلد أن ينجح في الوصول الى بر الأمان، كلما ظهر مخلص تآمروا عليه وقالوا قولتهم فيه، ابن من هذا الذي جاءنا بكل هذه الأفعال وماذا يريد؟! وتذكرت الآن موقف الرب يسوع المسيح الذي أنكره أهله في الناصرة «ولما جاء الى وطنه كان يعلمهم في مجمعهم حتى بهتوا وقالوا من أين لهذا، هذه الحكمة والقوات؟! أليس هذا ابن النجار؟! أليست أمه تدعى مريم، واخوته يعقوب ويوسى وسمعان ويهوذا؟! أو ليست أخواته جميعهن عندنا؟! فمن أين لهذا هذه كلها..» متى ١٣:٥٤-٥٧. وبعد أن يتكلموا عنك في غيابك اذا بهم في محضرك يحيطون بك لأنك تملك شيئا من السلطة والقوة .. وينفضون من حولك اذا فقدتهما!! ولن أنسى هذه الفترة من العمل مع الشباب خارج أسوار الجامعة التي استمرت ثلاث سنوات من أخصب فترات حياتي، ولقد تخرج من هذه المدرسة - مدرسة الحب والعطاء المتميز والتدريب الشاق على العمل

الاجتماعي. مجموعة رائعة من الشباب في مواقع العمل المختلفة بمصر الآن، احتلوا مكانا طيبا لأنهم وجدوا تربة طيبة أخلصنا في بذرها وفلاحتها لكن بقول المسيح الحصاد كثير ولكن الفعلة قليلون!! الخير موجود لكنهم لا يريدونه.

بعد فترة قصيرة أخْترت عميدا للكلية، أصبحت مسئولا عن كلية قيل عنها أنها متشددة - وهي بالفعل كذلك - تضم المتشددين والخارجين على النظام وما يزال بعض منتسبيها داخل القضبان تذهب اليهم لجان الامتحانات كل حين وتمتحنهم وتأتي بالأوراق كي نصححها ونسلم نتائجهم الى ادارة السجون بوزارة الداخلية. أمكن لي في هذه الفترة أن أرقب عن قرب صور التعصب المقيت ضد المسيحيين وهالني أن يكون الأمر بهذه الصورة المخيفة التي تنذر بغضب سماوي آت لا محالة كذلك الغضب الذي أنزله الله بشعب مصر أيام موسى.

في إحدى المرات تقدمت موظفة مسيحية تريد الانتقال الى كيلتي للعمل في مكتب سكرتارية العميد لأنها تمتلك مهارات اللغة والكمبيوتر وتستطيع أن تنجز كثيرا من الأعمال بدلا من بطء الايقاع لموظفي وموظفات الكلية اللذين ما يزالون يستخدمون الآلة الكاتبة التقليدية وحفظ الملفات في أرشيف تقليدي وكنت أريد تحديث نظام الادارة في الكلية وأعلنت عن عدة تخصصات لوظائف رأيتها مهمة ولكن كبير موظفي الكلية رفض الموظفة قائلا: انت هاتعملها كنيسة يا باشا؟! طبعا لأنها تعرف شغلها جيدا وسوف تكشف الجهل والتخلف الذي كان يريده الموظف الكبير وفريق العمل الكسيح الذي يعود الى أيام العصور الوسطى .. تسلل الموظف - من وراء ظهري - الى رئيس الجامعة يشكوني ويرجو ألا يوافق على الطلب لأن الكلية اسلامية ولا يريد أن ينجسها بهؤلاء .. ولأنه رجل كان يقترب من سن المعاش فلم أؤذه وطيب رئيس الجامعة خاطره وقال لي حدّث في الكلية كما تريد ولكن بعد أن يخرج هذا المتخلّف على المعاش.

أيضا لن أنسى أحد الاجتماعات التي كانت تناقش خطة ايقاف الطلاب المسيحيين في الدراسات العليا في كلية الطب وكيف أن غالبية المعيدين والمدرسين المساعدين أصبحوا من المسيحيين مما يهدد الأمن لأنهم تخطوا حدود المسموح به حسب تعدادهم فمن المفروض ألا تزيد الوظائف الممنوحة لهم وفق النسبة المقررة ١٠٪ من اجمالي الوظائف الموجودة. كانوا يناقشون الأمر بجدية بالغة كما لو كان العدو سوف يأتي ويقتلعهم من كراسيهم ويفقدون سطوتهم وسلطاتهم، وكم من اعلان ظهر في الجريدة تم «تجميده» لأن الثلاثة الأوائل من النصارى .. أي جو هذا الذي تعمل فيه وأنت تفقد أهم صفات العالم: العدل والحق والمساواة. اننا كذابون مخادعون عار علينا أن نعلن أنتسابنا الى الجامعة واحة الحرية والفكر والسلام، ذهب الوقت الذي كان فيه عميد كلية يجبر وزيرا على الاستقالة كما حدث مع طه حسين مثلا، حين ضغط عليه الوزير يطلب أمرا ليس من حقه فتمسك طه بموقفه وقدم استقالته فما كان من الوزير أن خاف على نفسه من الفضيحة ومن سطوة الرأي العام فقدّم استقالته. ضاعت قداسة الجامعة حين ضل اساتذتها الطريق فلم يعودوا يميزون بين الحق والباطل، بين العلم والجهل بين الكفر والايمان، وساروا ألعوبة في يد السلطة تعبث بهم كيفما تشاء، لم يتعلموا شيئا لذلك لم يعطوا أحدا فازداد الجهل وعمت الضلالات والأفكار السوداء والبقية الباقية من الشرفاء انغلقت على نفسها وتركت الساحة للجهل والجهلاء.

ان صدمتي ليست هينة مع هؤلاء المتأسلمين الكفار، لقد أفسدوا كل شيء في مصر، وأيضا تدخلوا في حياتي وأفسدوها .. بالطبع لم يعجبهم دوري المؤثر الذي رفض سطوتهم وأوجد لنفسه طريقا متميزا يسير فيه مستغلا وجود بعض الشرفاء المحبين للوطن، وبدأ المتشددون يتعرضون لي في المحاضرات وكنت لا أتركهم بل أخرسهم بالحجة والمنطق، لقد أعطيت

تعليماتي بعدم دخول الطلاب المتشددين المحاضرة بالجلباب!!
ومنعت استعمال «المسواك» في طرقات الكلية وفي داخل المدرجات
وتصديت لمشكلة الطالبات المنقبات، فالقانون يحذر دخول المنقبات
الجامعة بهذا الزي غير المعروف من الذي يرتديه هل رجلا أم
أمرأة .. وكان على الأستاذ أن يتحمل «طناش» الأمن مثلا اذا
دخلت الطالبة المنقبة من باب الجامعة الكبير .. فعلى العمداء
والمسئولين بالكليات عدم التهاون في ذلك الأمر لكن الجميع كان
يتعاطف معهن ولا يتعرض أحد لهن. إلا أنا.

لم يهمّني الأمر، يجب عدم التهاون مع المنقبات، لأن ذلك هو
الشر بعينه، فيمكن أن يرتدي أحد «البلطجية» نقابا نسائيا ويدخل
المحاضرات ويعيث في الأرض فسادا. كنت أقوم بدور الشرطة
التي تهاونت وأدخلت المنقبات من الباب الرئيسي، من أنت يا
ابنتي؟! أريد أن أرى تحقيق شخصيتك؟! فلا ترد لأن صوت
المرأة عورة في الاسلام ولا يجوز لها أن ترفع صوتها فتظهر
فتنتها وسحرها وغنجها، وبذلك يحدث ما لا تحمد عقباه
ويصطادنا ابليس ويوقعنا في المحظور .. وكأنه لا شر في الدنيا
إلا الجنس وكأنه لا يثق في أن تنشأ علاقة محترمة بين رجل
وامرأة أبدا .. «ما اجتمع رجل وامرأة إلا والشيطان ثالثهما»
كيف ذلك؟! لا أدري كأن المرأة مجرد متعة واناء يضع فيها الرجل
حاجته ويمضي!!

نعود الى «المنقبات» حين ترفضن اجابتي أضطر الى اخراجها
من المحاضرة، ويحدث الاحتكاك يأتيني أحدهم بلحيته الكثة: اتق
الله يا أخي فلا أسمح له بهذا التجاوز، وأحوله الى مجلس تأديب،
ولكن الصراع لا ينتهي، أصبحت موضوعا لخطب الجمعة في
المساجد التي استولى عليها الأخوة من الجماعات ونشروا
ضلالهم وفسادهم عبر مكبرات الصوت، يسمعها الرائح والغادي
وتدخل الى البيوت سموم ودمامة تعبث بالعقول. وكم من خطابات

تهديد وصلتني، وكم من مقالات نشروها في مجلاتهم المملوءة بالحقد الأسود. في احدى المرات شكوت لأحد المسئولين بشاعة الهجوم على شخصي على صفحات جرائدهم فقال لي «ابسط يا عم أصبحت الآن في موقع الأحداث» الآن معك حيثيات قوية لوظائف أكبر في المستقبل. وبالفعل حدث ما قال المسئول الكبير بعد فترة ليست قصيرة اخترت لمنصب كبير له علاقة بشخصية كبيرة في الحكومة.

قام الأوغاد من جماعات الاسلام بإشعال المعارك ضدي، زعم أحدهم أنني على علاقة باحدى المنقبات وكنت لا أعرفها وسألت قائد الحرس عن شكلها قال لي أنها مثال صارخ للدمامة. فحمدت الله وأيقنت سلامتي من شرورهم فلا أحد يصدق أن انسانة عاطلة من الجمال يمكن أن تقيم علاقة مشبوهة مع عميد الكلية، ولكن الفتاة ذهبت الى زوجتي بتدبير وتخطيط من الجماعات واقنعتها بوجود علاقة غير شريفة معها وأقامت زوجتي الدنيا ولم تقعدها وقد كانت علاقتنا دائما ليست على ما يرام، فهي دائمة الشك والتشكيك ولا يوجد في عقلها الا افتعال المشاكل وافتقاد الأمان ومحاولة وضع أسوار كثيفة تعزلني عن المجتمع. ولقد أجادت الجماعة الاسلامية استغلالها وأفسدوا حياتنا. وتطوع أحد «الدكاترة» من أصحاب اللحي، وهو نصّاب كبير وكذّاب ولا يحمل أي علم، وقد حصل على درجته العلمية بالتمثيل .. وأقنع أستاذه بأنه مصاب بمرض عضال يستعصى الشفاء منه وأنه يريد الحصول على الدرجة العلمية حتى يعمل ليترك لأولاده ما يقتاتون به بعد موته!! وصدّق الدكتور الكبير الرواية الكاذبة ومنحه الدكتوراه كنوع من الصدقة ليبحث عن لقمة عيش ثم طبع له رسالته وأجازه!!

هذه عينة من النصابين نقل هذا الـ .. الى زوجتي أخبار كاذبة مزورة، صدقتها زوجتي وطلبت الطلاق وتركت لي طفلين

أربيهما بنفسي!! فهل أنسى أن هؤلاء الذين خربوا بيتي يمكن أن يكون لديهم حل معضلة الايمان: الاسلام هو الحل .. هل يجوز أن يكون هذا هو الشعار، أي حل هذا الذي يقضي على البيوت الآمنة ويخرب العلاقات الأسرية. يمنعني الحياء أن أكمل قصة الفتاة «المنقبة» التي أرسلها هذا «الدكتور المسلم»، لقد اكتشفت أنه على علاقة بها .. ومثل هذا كثير بين المسلمين الذين لم يتنبهوا لهذا الخطر.

كانت هذه الأعمال انذارا من السماء اليّ: هؤلاء البشر ليسوا أسوياء، ولتعتز لهم ولتؤثر السلامة حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا. لقد كنت أحب التسامح وأثق أن الإله لا يمكن أن يكون بهذه القسوة والعنف بهذا .. اللاشرف أي إله هذا الذي يدين له هؤلاء الذين ينشرون الفساد والضلال وقلوبهم تمتلىء بالحقد والمرارة على خلق الله.

غضبت من الإسلام وكرهت هذه الأنماط من المسلمين الذين فعلوا بأسرتي كل هذا وشتتوا أولادي وكرهت المتشددين الذين أفسدوا الجامعة والمجتمع والوطن. فترة لن أنساها ما حييت، انطلقت الى الملذات، منكرا وجود الله، لو كان الله موجودا ما فعل الأشرار كل هذا؟! لو كان الله موجودا ما وصلت بلدي الى هذه المنطقة الخطرة ولما وصل عامة الشعب الى هذا المسخ والتشويه: من هم؟! ومع من؟! وضد من؟! ومن العدو ومن الصديق؟! أين الحق؟! أين العدل؟! أين الطريق ضاعت المعالم وفقدنا بوصلة الاتجاهات الحقيقية .. كانت مصر اشتراكية وأصبحت رأسمالية ولكنها لم تقدر أن تكون نفسها!! رفض المسلمون التشدد ثم أيدوه وشايعوه وانتصروا له، فلا يمكن أن يكون هذا هو الاسلام!!

ان حصاد مرحلة العمل في الجامعة أستاذا ثم وكيلا وعميدا كانت مرحلة «الكشف» لقد أتاحت لي الرؤية للأحداث عن قرب

أبعادا جديدة ما كان يمكن أن تتاح لي لو ظللت بعيدا عن التأثير والتأثر. إن الدور الذي لعبته في الصحافة وفي الاذاعة والتلفزيون، في الشارع مع الناس منحنى آفاقا جديدة، مكنني هذا الدور أن أفحص وأرى ما لا يراه الآخرون، رحت أعاين الشر وأعرف مواطنه وأسبابه، قرّبني هذا الدور من رؤية الواقع من مكان أعلى قليلا ممن هم في مثل سني، مما هيأ لي فرصة العمر أن أرى الحقائق المجردة وأكشف عن الواقع المر وأرى الأبواب المغلقة والطريق المسدود لو كان الاسلام دينا سماويا لما فعل بنا هؤلاء البشر ما حاق بنا من تخلف وجهل، وفقر ومرض، وسلوكيات مريضة. إن الأستاذ الذي خرب بيتي تربى في الارهاب الاسلامي وأتقن لعبة الشر وما يزال يقف بين الطلاب يبث سمومه ويلعب بعقولهم الى من أرفع يدي، ان ينقذ شبابنا من أمثال هؤلاء، يارب تحنن على عبادك المسلمين لا تتركهم نهبا للمتعصبين الحاقدين، انقذهم يارب وأنر طريقهم بنورك .. مدَّ يديك اليهم وأرجعهم الى حظيرتك..

لم أستطع الصمود أمام هذه «الكشوفات» انهارت مقاومتي .. لا السياسة تجدي ولا الدين الفارغ الذي تخرجت منه هذه العصابات، ولا الجامعة محراب العلم، ولا المجتمع المتكاسل المرائي، الذي تجمعه «طبلة وتفرقه عصا» يسأل أحد مراسلي وكالات الأنباء العالمية عن أحداث العنف الطائفي والمظاهرات الدامية التي اجتاحت بعض المدن والقرى فكان جواب وزير الداخلية: غدا مباراة الأهلي والزمالك ولن تجد أحدا في الشارع يتظاهر أو يتشاجر، وأراهنك على هذا .. تعجب المراسل أمام فظاعة المظاهرات وشدتها والمسئول الأول عن الأمن يتكلم باستخفاف عن شعبه .. وكسب المسئول الكبير الرهان فما أن جاء موعد المباراة حتى دخل كل فرد داره وجلس متأدبا أمام التلفزيون ونسى القضية التي يكافح من أجلها، لأنه ببساطة: لا توجد قضية.

ان المسئولين الذين خربوا عقل الأمه وأفسدوه تماماً يدركون جيدا قواعد اللعبة لا توجد قضية ولا فكر ولا معتقدات، فقط شعب ساخط يريد أن يخرج ثورته في أي شيء ثم يعود ويهدأ بعد أن يظن أنه فعل ما عليه، شعب يعاني كل الأمراض، فقر، جهل، أمراض متفشية تقضي على خيرة شبابها، البحث عن مسكن، عن مستشفى غير استثماري ينهب أموال الناس. مجتمع لا هوية له، لقد تعرض للتدمير ومحو شخصيته وأخيرا صار الشيء ونقيضه معا، فهو «مع» وهو «ضد».. بأي شيء تؤمن إذن؟! وعمت مصر الآن موضة عجيبة، التعلق بالجان والزواج منهم والتعايش معهم. وكل انسان في مصر يشعر أن عفريتا يركبه ويأتي الى الشيوخ والقسس بحثا عن الشفاء، نحن، من ضمن شعوب العالم، اختارتنا العفاريت لتركبنا وكأنه لم يبق شيء لنا في الدينا إلا العفاريت والجان، فتجد المشعوذين قد أقنعوا البسطاء بالعلاج بالقرآن، وأحدهم حقق شهرة واسعة وله جريدة كبيرة الآن وأحد رجال الأعمال، من دم الشعب المسكين الذي هرب الى العفاريت والجن كنوع من «التغييب».

لقد استنفدت طاقتي في كل شيء تقريبا .. جربت كل الأنحاء، سرت في كل الاتجاهات بحثت عن الله في العمل، في الشارع، في السياسة، في الفكر، في قلب المجتمع، لم أجده!!

أين الطريق؟! لا أحد يفكر ...

أن وفرة حاجيات الانسان الأساسية هي أهم أسباب استقراره، ولكن ليس معي أنا .. لا يمكن أن تكون الحياة مجرد مادة وشهوة ثم موت وانتهاء وفناء وعماء!!

أعترف أن هذا الكشف زلزل أعماقي واجتث جذوري .. لم ينجني فكري الذي طالما افتخرت به ونظرت اليه بعجب وتيه ..

ولم ينجني دوري الذي تأصل في المجتمع ومع الشباب وفي الوقت نفسه لم أحصل على أية نتيجة سوى احتدام الصراع وسواد الرؤية. وكانت النساء حلا سهلا، فمع النساء كنت أشعر أنني أفعل شيئا نافعا يمكن أن ينتج أولادا وبناتا لتعمّر المسكونة!! ومع النساء تجد حصادا سريعا لما تزرعه ومعهن تجد الحنان والمشاعر التي تفتقدها .. ولكن الطريق معهن كان مسدودا أيضا!! كيف؟ كنت أبحث عن الجديد في كل مرة مع إحداهن، والنتيجة أنهن سواء كل النساء سواء.

المعرفة التي توصلّت اليها ،عن طريقهن زادت في غموضي وحيرتي فأنت مهما فعلت لن تستطيع أن تستحوذ على نساء العالم لتذوق طعما مختلفا في كل واحدة، كأن تطلب من انسان مثلا أن يشرب ماء البحر حتى يرتوي ولن يرتوي كلما توغلت في علاقاتي النسائية كلما مضيت في طريق مظلم لا منتهى له، انك تدخل نفقا تتصور أن الضوء في آخره، ولكن لا ضوء وأنت تمضي داخل النفق كلما مضيت كلما تعثرت وصعبت عليك الرؤية والحصول على المتعة الجديدة التي لا تزول أبدا ثم يقودك الظلام في نهاية النفق أن تتمنى الموت ولا تجده .. لم يهمس في أذني أحد أنني اذا كنت أبحث عن متعة لا تفنى، فهو الله!!..

ذهبت الى الشراب، الى الوهم كلما تعثرت وصعبت عليّ الرؤية والحصول على «المنتهى» كنت أحتسي الشراب حتى أخرس الأصوات الصارخة في أعماقي وأقتل الأهات الحبيسة التي تشبه البركان داخلي .. كانت الأهات تتلوى كالأفعى داخلي، تقض عليّ مضجعي وتحرمني من النوم، ومن تذوق طعم البلاهة والتخلف كم وددت أن أكون بلا عقل حتى أوقف هذه الآلة التي أسمع صريرها ليلا ونهارا تعمل دون كلل: أشرب فتأتيني سكرة لطيفة أعيش على أوهامها لحظات ثم سرعان ما أفيق، تزداد الصورة ضراوة، يزداد الواقع كآبة، ليست الخمر اذن هي الحل ولا النساء هن الحل .. ولا الاسلام هو الحل .. أين الحل إذن؟!

انه درس صعب، درس اللذة .. فاللذة تفنى، ولو كانت خالدة لما انتهت فور تحققها .. عمرها القصير عجّل بقيمتها مهما كانت روعتها. إن الزمن يهزمها ويفتتها ويتركها أشلاء!! إذن اللذة لا تصلح دينا!! عليك أن تبحث عن إله آخر لا يفنى .. لكن أين؟! لست أدري ..

لم يكن أمامي طريق آخر سوى الإسلام أعاود النظر فيه من وقت الى آخر ولكن في هذه الأثناء بدأ حماسي للإسلام يفتر تماما، كنت عندما أشعر بحاجتي الى الله وبومضة من نور تشتعل داخلي أهرع الى الصلاة وأستسلم له وأبكي .. ولكن لم تكن هناك استجابة وكانت الشعلة المتوقدة سرعان ما تنطفىء، القلب عامر بالأحاسيس والخطاب موجه الى الهواء .. لكني كنت أصلي وأصوم رمضان وأقيم الشعائر ما استطعت الى ذلك سبيلا .. كنت قريبا من بعض الأصدقاء المسيحيين الذين أسعدهم وفائي لهم وسؤالي عنهم فكانوا يثقون في ويأتمنونني على أسرارهم ويحكون لي عن وقائع اضطهادهم، منهم ذلك الضابط الشاب الذي أحببته هو وأسرته، وذلك المسئول الكبير عضو مجلس الشعب الذي كنت أستضيفه دائما في الكلية مع طلابي ليحدثهم عن تجربته البرلمانية وليغذي فيهم مشاعر الوحدة الوطنية وتقبل الآخر. والسماحة والمحبة للآخرين، ولكن ظلت علاقتنا لا تتطرق الى الدين بتاتا فلا هم فاتحوني في أمر ديني ولا أنا سألتهم عن شيء .. وحتى هذا الضابط الشاب الذي كان يضع في كاسيت سيارته ترانيم وصلوات مسيحية شعرت بالهدوء والسكينة بعدها لم يحاول أن يعطيني شريطا لأسمعه في البيت، أو كتابا لأقرأة وأعرف الرب .. أسمعني في مرة موعظة للبابا شنودة اقشعر قلبي بعدها ولكنه لم يعد الى الحديث في أمور الدين أبدا .. كان يخاف مني وكان يخاف عليّ ..

كان الطريق مظلما حالك السواد، استنفذت طاقاتي كلها، بحثت في كل الاتجاهات والأرجاء، لا صوت يأتيني، لا أمل ينجيني ..

فجأة ظهر شعاع أمل صغير توهمته ضوءا قويا .. لقد أرادني الله أخيرا بحث عني ودعاني، لقد طلبني للعمل في العربية السعودية في جامعة بالرياض إذن الله يبحث عني وأنا ذاهب اليه في عقر داره، هذا هو الحل، هذا هو الإله الذي أبحث عنه، أخيرا هناك حل، إن الاغتسال من ماء زمزم سوف يزيل خطاياي، إن الطواف حول الكعبة سيعيدني الى البراءة والنقاء والطهارة سأقابل الله في السعودية وسأحكي معه، وسأشكوه الى نفسه: لماذا تركتني أسأل عنك وأنت موجود هناك؟! اذا لم تأت اليّ أنت .. فأنا قادم اليك لأنني أنا المحتاج إليك.

سعيدا ذهبت الى السعودية بحثا عنه ..
وهناك .. كانت الصدمة الكبرى!!

الفصل الثالث

السعودية: أرض الأحزان!

بقلب مملوء بالحب ورغبة أكيدة في البحث عن الحقيقة، سافرت الى العربية السعودية .. أخيرا جئت الى أرض الرسالة الخالدة، أتمرغ في أرضها وأغتسل من مائها وأعلن خلاصي ووجود الإله .. أخيرا أنا في أرض رسول الاسلام، هنا عاش، هنا ترعرع ومشى، في هذا المكان جاءته الرسالة وكلمة جبريل، هنا دفن وصار مسجده مكانا يؤمه ملايين المسلمين، سوف أنعم أخيرا بالسلام وأقابل الله !!

ما أن تركت المطار المكيف في صيف أغسطس الحار، وخرجت الى الشارع حتى استقبلتني حرارة الجو الملتهبة، قلت لنفسي هذا ليس فألا حسنا، ولكني ها أنذا جئت والهدف أكبر من حرارة الجو وعليّ أن أتحمل. بدأت على الفور عملي في الجامعة، في كلية بنات عن طريق الاستديو - فأنت تجلس في مكتب صغير تنقل صورتك وصوتك الى الداخل «المحرَّم» على الرجال !! وعن طريق التلفزيون يرونك ويسألونك وتجيب على أسئلتهم وأنت لا ترى أحدا، كأنك تكلم نفسك!!

بدت عملية التعليم بالنسبة لي شاقة فالتوصيل يعني التواصل ولا يمكن لمعلومات أن تصل الى طلابك الا عن طريق الرؤية الحية والمناقشة والمعاينة خاصة مع الأستاذ الذي لا يحب التلقين أو يصبح مجرد آلة تسجيل، بالطبع كان ذلك يروق الأزهريين الذين ظنوها فرصة للخطابة ورفع الصوت حتى ينال رضاهم .. هذه أولى العقبات وأخطرها فإذا لم تنسجم في عملك فلن تستطيع أن تؤدي عملا حسنا، نظرت للأمر نظرة جديدة، لعل ذلك يكشف لك عن امكانيات جديدة عندك، فلماذا لا تعتبر نفسك كفيفا وتتصور

أنك داخل المدرج وأمام الطالبات ومطلوب منك آن تسيطر على المحاضرة، وتنقل المعلومات وتقوم بواجباتك على أكمل وجه٠ وعلى ذكر «العمى» - جنبك الله شرّه - أيها القارئ العزيز، تذكرت صديقي الذي كان يمر بضائقة مالية فذهب الى مكتب التوظيف السعودي بالقاهرة بحثا عن وظيفة أستاذ بعد أن نشروا اعلانا بذلك في الجريدة فقالوا له إن المطلوب «عميان» !! أي والله ٠٠ أجابهم بتهكم حتى نعمة البصر صارت نقمة عندكم مطلوب مني حتى أحصل على الوظيفة أن أقتلع عيوني وأصير أعمى !! هل هذا منطق؟!

بهذه الكلمة السحرية ٠٠ «منطق» عليك أن تبدأ في الدخول الى قلب الحياة السعودية استبعد المنطق تماما وتعامل مع الواقع بفهم آخر مختلف، فمنطقهم هو اللامنطق، يختلفون عن كل البشر، لست أتجنى على أحد ولكنني أقول الحق، وقلبي يتمزق عليهم، فهم بشر يواجهون كل أنواع محاولات إلغاء العقل، وإعمال المنطق والوقوع أسر النص الديني - يتصرفون أحيانا كآلات صماء فقدت بشريتها، صاروا نسخا من انسان خيالي همه أن ينفذ شرع الله ٠٠ لا نسبق الأحداث، نعود الى عملي الذي واجهت فيه هذه الصعوبات، ففي تعاملك مع العقول أنت بحاجة الى استثارتها وسماعها ثم تغييرها وتبديلها وبنائها من جديد٠ أنت تستبعد - في محاولة ذكية لكنها محفوفة بالخطر - ما يعتبر من المسلّمات أو القواعد الراسخة الثابتة، فيتعلم الطالب استخدام عقله الذي كان قد أعطاه أجازة ٠٠ كنت أجهد أن أقوم بكل هذا بخطة محكمة لأستاذ محترف يتوصل الى المعلومة عن طريق الاستنتاج والنقاش ولا يصبح مجرد آلة توزع خطبا منبرية كما يصنع الأخوة الأزهريون الذين أفسدوا التعليم السعودي والتعليم في مصر على السواء٠ كان تحديا صعبا لي، أن تكون الأستاذ الذي يحترم نفسه وعلمه وتاريخه، ثم أن تعمل بضمير من أجل هؤلاء الباحثات عن مكان أفضل، الظامئات الى التعليم، المجني

عليهن داخل أسوار الجامعة والشارع وفي البيت !! كنت اتقرب بعملي الى الله عسى أن يكشف عني حجبه، ويرفع الغشاوة من على عيني فأعرفه ويعرفني. ولأنك غير موجود بالمحاضرة في الداخل، فهناك معيدة أو مشرفة من طلاب الدراسات العليا يشرفن على الغياب والحضور ويحفظن النظام ويحدث كثيرا أن تغيب المشرفة ويمكن في هذه الحال أن تلغى المحاضرة ولكن العمل يبدأ في الثامنة صباحا وينتهي قبل صلاة الظهر وربما تكون هناك ساعة واحدة بعد الصلاة، فكيف يمكن أن ينتهي الأساتذة من مناهجهم وساعات العمل قليلة جدا .. تقضي الطالبات بالكلية حوالي عشرين ساعة أسبوعيا لعشرة مواد دراسية !! فهل تكفي؟! أم أنهم يريدون مجرد الحصول على شهادات.

تتعب في السعودية كثيرا إذا كنت صاحب ضمير متيقظ وتعيش مرتاح البال إذا كان العكس، فبقليل من الحيل والمكر تستطيع أن توهمهم أنك تدرّس ولكنك في الحقيقة ترفع صوتك بخطب حماسية عصماء في أي موضوع حتى لو كان بعيدا عن المنهج والمحاضرة، واظهارا للتقوى وحسن الاسلام – لا تجرؤ أن تسأل الطالبات أو تناقشهن لأن ذلك يعجب السعوديين ويرضيهم من باب سد الذرائع، بمعنى أنك تغلق أبواب الشيطان، فربما كانت الطالبة تمتلك صوتا ناعما رخيما ويصبح حينئذ نوعا من الاغراء فيجوز أن يتطور الأمر من صورة مناقشة الى نوع من الاتصالات بأية طريقة ثم يحدث ما لا يحمد عقبها! كم اشفقت عليهن، وتحديت المحظورات فهن بناتي ويجب علي أن أكون منفذ هواء نقي لهن في هذا الجو الملوث. أدركت الطالبات أن هناك «لغة» مختلفة ومحاولات لخلق طاقات للعقل والفكر أن يتشكل، وبالطبع ممنوع تماما استعمال العقل في مناهجك لأن العقل قد يضل ويكفر بالله وتكون الفاجعة.

احتلت كثيرا لأجد منافذ هواء لتجديد الأثواب البالية والفكر المتحجر الذي يعوق حركة الانسان ويوقف نموه، وأدركت كم كانت الطالبات متعطشات وأنهن تجاوبن معي كثيرا وكشفن لي عن الأحزان والآلام التي يتعرضن لها، انهن عبارة عن جثث تنتظر الموت، يعشن في أقفاص حديدية لا يخرجن وحدهن أبدا، وإذا أرادت أحداهن بتدبير محكم غالبا - تستخدم فيه مكرا ودهاء - أن تستقبل صاحباتها فلا يجوز للرجال أن يقتربوا من باب حجرتها طالما وجدوا على عتبتها أحذية نسائية، ومعناها أن ابنتهم مع صديقاتها ولا يجوز أن يراهن أحد من الرجال، وحكت لي احداهن أنها تستخدم هذه الحيلة مع صديقها حتى تلقاه مرتديا عباءة النساء ويدخل اليها إذا ضمنت أن أمها أو أختها لن تكون موجودة بالبيت، وخلا لها الجو إلا من الرجال، الأب أو الأخ، فلا يقترب أحدهم من عتبة حجرتها. حكت لي أخرى أنها تنتظر بفارغ الصبر صديقتها فلانة لأنها «تفهمها» فهي تحتضنها طويلا وتتخلص مما يتعبها. حكت لي أخرى أنها تمتلك شرائط فيديو خليعة تريح بها نفسها .. لم أسمع ذلك من طالباتي في مصر أو في الجزائر أو في الكويت حيث عملت في كل هذه الجامعات. انه الكبت والحرمان المسئول الأول عن الانحراف. الحصار النفسي وحفظ المرأة السعودية داخل صندوق لا بد أن يفجر طاقة الجنس المتوحشة. ولو كان الأمر عاديا لما نظرن الى هذه الأشياء بالصورة السحرية المبالغة. ولكن البنات أرادت أن تبحث عن سر عزلتهن وتغييب دورهن وحصارهن بعيدا عن الرجال، إذن هناك أشياء تغرى بالبحث والمعرفة، تتصل بالرجل وأفعاله والجنس وأسراره وثورته واشتعاله. إن الكبت المبالغ فيه لا بد أن يولّد الانفجار وسوف يأتي الانفجار الأكبر كالبركان ان لم يجدن الحل. أقول لكم - لست أتنبأ - ولكني رأيت البوادر والعلامات، علامات النهاية وبوادر السقوط المريع .. وإنّا في الغد لمنتظرون ..

بالطبع كانت هناك قلة من الطالبات تتمتع الى حد ما بشيء من الحرية أتاحت لهن أن يعشن عيشة سوية دون منغصات. هذا النوع من الطالبات كن يدركن أهمية دوري جيدا، كن يشجعنني عليه، كن يطالبنني بتكثيف لهذا الدور كي أهديهن الى أول الطريق. كانت هذه أول معركة.لكنني لم آت الى هنا من أجل أحد، جئت لأجل نفسي أولا، انقاذ نفسي، باحثا عن الخلاص، عن الله، وليس من أجل الآخرين، كفاني كفاحي في مصر من أجل المجتمع ولم يشعر بي أحد وتخلوا عني حين ألمّ بي حادث عارض. لكن البنات البريئات الزهرات المدفونة تحت الأرض كن يتمسكن بي، فأنا الأمل الموجود أمامهم الآن وعليّ ألا أهرب، مضيت في الطريق وقلت مهما كانت النتائج لأعلم وأفتح مغاليق العقول وأقترب من عالم الأسرار وأفك ألغازهن وعقدهن وليكن ما يكون .. ان انسانا يصرخ لك: أنقذني؛ هل تتابع سيرك وتتركه يقضي نحبه؟ ان كلمة منك طيبة قد تحييه، تعيده الى الحياة. وأعترف أنني حين فتحت لهن باب الأمل، تدفقت عليّ مشاعرهن الفياضة الجياشة، كن يكتبن الشعر والقصة والمذكرات الشخصية ويقرأن ما يستطيعون اختلاسه من كتب شبه محرمة مثل الفلسفة والشعر الحديث «الكافر» والقصص الغرامية والمسرحيات لأنها رجس من عمل الشيطان، وهي تؤجج المشاعر وتوقظ الرغبة.

كان من ضمن مناهجي مادة أدب حديث، فأخذت أتحدث عن بداية القصة وتاريخ الرواية العربية التي بدأت بقصة «زينب» للكاتب محمد حسين هيكل وهي تتضمن قصة حب بينها وبين ابراهيم الفلاح ابن القرية، وحدثتهم عن أدب نجيب محفوظ وهو من المحرمات هناك، ودرست معهم روايات طه حسين أشهرها دعاء الكروان وهي قصة حقيقية حدثت في الصعيد صاغها طه حسين بقلم ساحر، وتكلمت عن الحب الشريف العفيف أرقى ما خلق الله فينا من مشاعر وقلت ان من حق المرأة أن تختار حياتها وأن تحب زوجها أولا لا أن تساق مثل الشاة الى رجلها .. لا بد

أن تختار، يساعدها في ذلك ولي أمرها وقلت ان أمة تخلو من المشاعر لا تستحق الحياة. فالأمة العظيمة تبدأ من البيت السعيد القائم على الحب، وغير ذلك لن تكون هناك أمة ولا بد أن تندثر وتزول .. وانفتحت عليّ أبواب جهنم، استدعيت الى الادارة، ولأنهم رأوا رجلا جادا يحمل علما لا ضلالا وفسادا ونصبا واحتيالا مثل بضاعة الغالبية العظمى، وقف أحدهم معي متحملا النتائج وقال لهم ان الرجل يدرّس ما كان يقوم به في مصر باخلاص، لا يقصد ما يعشعش في عقولكم، وهو ليس محتاجا إلينا، نحن الذين أرسلنا اليه وهو عميد كلية في بلده فإما أن يعامل بالحسنى أو أن يعود الى بلده محترما. سكتوا عني على مضض لأن المسئول الكبير شعر بصدقي في العطاء واخلاصي في التعليم.

أخذوا عليّ التعهدات أن أدرس شيئا اسمه (القصة الاسلامية) وأنا لم أسمع بهذا المصطلح من قبل، ولا يوجد شيء اسمه القصة الاسلامية، فهل يتصورون بذلك أنها كل قصة كتبها انسان مسلم تسمى اسلامية؟! وهل طه حسين أو نجيب محفوظ أو ابراهيم المازني غير مسلمين؟! أم يقصدون عدم اظهار المشاعر بين الرجل والمرأة - مشاعر الحب محرمة تماما في السعودية وهي جريمة، أما أن تكره أو تحقد فقد كانوا يكافئونك عليها .. أم يقصدون بالقصة الاسلامية تصوير وقائع لمعارك وحروب رسول الاسلام مع الكفار؟! وهل هذه قصة اسلامية؟! انها تسمى قصة تاريخية، فهل إذا كتبت عن المجتمع المصري لا يعد ذلك قصصا اسلاميا؟! مئات الأسئلة تحاصرني ولكن النصابون الأفاقون من محترفي دعارة الكلمة في مصر أقنعوهم بهذا، وقبضوا الثمن، وتركوهم في جهلهم، سألت حضرات الذين يفهمون منهم وماذا أدرس من قصص في هذه المادة ؟! قالوا متعجبين من جهلي، كيف تقول هذا يا رجل ألم تسمع عن كاتب اسلامي كبير هو «علي أحمد باكثير» ؟! قلت هو كاتب تاريخي وله

قصة واحدة وعدد من المسرحيات قالوا درّس القصة فقط، نحن لا نريد متخصصا في الأدب، نريد الماما سريعا بفن القصة ومكوناتها بالتطبيق على هذه القصة «واسلاماه» قلت لهم هذا ليس من الأدب الروائي، انها قصة تاريخية ضعيفة، تحولت الى فيلم سينمائي مشهور، هذا ليس أدبا بل أنه قلة «أدب».

أدركت بعدها أنهم لا يهتمون بالعلم لذاته، بل مجرد ديكور «منظر» هم ينشئون الكليات بمبان شاهقة وامكانيات مادية هائلة دون وجود «كوادر» لأعضاء هيئة التدريس، هم يعينون تلميذتي المعيدة عميدة كلية .. وتأتي البنت بكل أنواع العقد بداية من جهلها الى التنكر الى كل من علمها شيئا وكان حظه العاثر أنه ما يزال يعمل في الكلية التي صارت هي عميدة لها. وبالطبع فهي لا تعرف شيئا لا في العلم ولا في الادارة، وتبدأ زميلاتها فاصلا من المؤامرات ضدها لافشالها حقدا عليها، وتعيش أجواء مسمومة لا ترى فيها بارقة أمل. تلجأ المعيدة «العميدة» الى اختيار مشرفها للماجستير، وتغدق عليه ولا بد أن يكون «حمارا» لا يفهم طماعا، لا يعرف الشرف حتى يكتب الرسالة بدلا منها ويقبض الثمن ثم يشيع بعدها بعبارات الاشمئزاز لأنها استخدمته لهدف محدد، وقد انتهى دوره وتخشى أن يفتح فمه فتنتحل الأعذار وتنهي «عقده» وتبحث عن ضحية جديدة ينجز لها الدكتوراه شريطة أن يتصف بالصفات إياها.

كان لديّ سيدة سعودية مهذبة أشرف عليها في الدكتوراه، كانت دائمة الحزن باكية دامعة العين بالرغم من عقليتها الرائعة، أحضرت لها كتبا من مصر من جيبي الخاص حتى تعلم أن الأساتذة المصريين بخير، وليس كلهم على شاكلة النوعية إياها التي يسهل شراؤها، ان اسمها «س.ح.» وحين اطمأنت اليّ حكت لي قصتها الدامية الدامعة، هو ابن عمها يعمل جنديا، لا يقرأ ولا يكتب وهي دكتورة، تزوجها بحكم العادة، لكنه «عنين» لا

يقدر على المعاشرة الزوجية وهو شبه متخلف، لكن المطلوب منها ألا تشكو أو ترفع صوتها وعليها أن تعيش عمرها كله بهذه الطريقة .. ما هذا الظلم؟! البنت صغيرة والأب متشاغل عنها .. أنتم أيها الظلمة ما زلتم تمارسون وأد البنات الذي حذركم منه القرآن .. كيف تجبر ابنتك أيها الأب المتعجرف على الفعل الفاحش وأنت توفر لها الجو وتهيئ لها الأسباب ؟! ألا تفهم ؟ ألا تعي ؟! ولكن الى من أشكو ؟! أشكوهم الى الله الذي قلبوا نعمته الى نقمة وشقاء وعطيته الى اثم وحزن ومعصية ..

.

تستطيع ببضع كلمات عن الاسلام أن تصير علما من الأعلام في السعودية، عليك أولا أن تكفر بالحداثة، وتكفر بالشعراء الخارجين على الاسلام - كل شعراء العرب المحدثين خرجوا في عرف السعوديين عن الاسلام - ما عدا شعراء الاسلام النصابون الكذابون الأفاقون .. فصلاح عبد الصبور كافر لأنه قال في إحدى قصائده «ونظر الى السماء نظرة احتقار .. ورفع زنديه في الهواء، في وجه السماء» وعبد الرحمن الشرقاوي كافر حتى بعد أن تاب عن الشيوعية وصار كاتبا اسلاميا، فشعره يعد من المحرومات، والسياب كافر، وعبد الوهاب البياتي لا تقترب منه وآدونيس إله الكفر والزندقة وعبد العزيز المقالح يعبد الأصنام وحجازي خارج على الاسلام ونزار قباني فهو الكفر الصريح لأنه شتمهم في قصائده - شتم كل العرب بعد أن قتلوا زوجته بلقيس في بيتها .. عليك ألا تتكلم عن شعر اليمن أو اليمنيين فهناك عقدة لديهم من اليمن مع أنهم أصل الحضارة العربية وأطيب شعوب الأرض التي رأيتها في حياتي، ولكنهم في السعودية لهم رأي آخر، هم يصنفون البشر حسب مصالحهم. هناك تعلم مثلا أنهم يمنعون الحديث عن ميلاد رسول الاسلام محمد ويحتفلون في الوقت نفسه بعيد ميلاد الملك عبد العزيز مؤسس المملكة ؟! يتناقضون مع أنفسهم ومن الصعب أن تقنعهم فالمنطق بعيد جدا عن الواقع .. وهم أسرى النص الديني الضيق الذي راحت

أيامه. قلت لأحدهم مرة: وكان يرفض بشدة الحضارة الغربية - لماذا تركب السيارة وتستخدم التليفون المحمول، إن هذه الانجازات من الحضارة الغربية، لتركب الجمل وتسكن الخيام ولتبتعد عن المدنية لأنها حصاد حضارة غربية، فقال لي نحن نختار من الحضارة ما يصلح لنا ونستبعد منها ما هو ضار وخطر علينا. قلت له ومن الذي يختار ما هو صالح ؟! ألست مخطئا في حق نفسك حين تسلم عقلك للآخرين يفكرون بدلا منك ؟! لكن الأمر ليس بهذه البساطة .. لم تكن المحاورة تنتهي الى نتيجة نظرا للهوة الشاسعة التي تفصل بيننا - ان غياب «المنطق» من الحوار يدعوه الى التخبّط ومضغ الألفاظ، مجرد أن يلوكها .. دون أن يفهم ماذا يقصد بها، يتحدث عن الهوية الاسلامية والشخصية العربية وهو لا يدرك شيئا .. مجرد «حشو» أدخله الى عقله قسرا وأحكم اغلاقه حتى لا يرى النور أو الشمس فتفسد أفكاره وتفقد جلالها !!!

لم أحن رأسي أبدا لأحد، وقفت ضد محاولات تشويه العقل والدعارة الفكرية كسرقة العلم والشهادات والحصول على الدرجات العلمية ماجستير ودكتوراه بموضوعات سبق دراستها من قبل. وأذكر موضوعا أغاظني وأثارني:

كانت رسالة دكتوراه في البلاغة الغربية - بلاغة القرآن - وقلت للباحثة وسط الأساتذة من جميع الجنسيات العربية يا ابنتي ماذا ستفعلين في هذه الدراسة، قالت حسب الخطة التي أمامك قلت لها أنا لا أرى خطة بحث ولكني أرى موضوع انشاء يتحدث عن أشياء معروفة مسلّم بها، فحتى الانسان غير المسلم الآن لا ينكر بلاغة القرآن وجمال أسلوبه، فهل تجرئين مثلا على نقد بعض صور الجمال والتشكيل التصويري في هذه الآيات، أجابت بدهشة: لا .. لا يمكن ومن يفعل هذا يصبح كافرا، قلت لها، حسنا يا ابنتي طالما أن النتائج معروفة قبل الدراسة إذن فهذه

دراسة فاشلة فيحسن بك أن تغيري الموضوع لأنك لن تستطيعي أن تتعاملي مع كلام الله مثل كلام البشر فتنتقدينه وتفسرينه وتشرحينه وتحللينه تحليلا جديدا يكشف عن روعة بنائه وتماسك كلماته .. وكأنني قد أعلنت كفري صريحا .. كيف أقول ذلك، قلت لها لأنني لا أريدك أن تحصلي على مجرد شهادة دكتوراه وبعدها لا تجرؤين على التحدث في أي موضوع لأن الخلفية العلمية ناقصة وضعيفة وأدوات البحث المنهجي مشوشة في عقلك وغير ناضجة، وقد أغاظها هذا النقد الصريح فردت بما يؤكد جهلها: أنتم المصريون تريدوننا أن نظل صغارا حتى تأتوا أنتم وتعلموننا أكبر وقت ممكن وتأخذون ريالاتنا .. !! أجبتها بهدوء هذه استقالتي يا ابنتي أرفعها اليك باعتبارك إحدى الأميرات المسئولات عن الكلية وأرجو ابلاغها فورا الى الادارة وخرجت من الاجتماع.

بالطبع ذهل الزملاء وحاولوا ابعاد أنفسهم عن منطقة الخطر - إلغاء عقود السخرة - فنافقوا الطالبة وتحدثوا عن علمها وأخلاقها ووافقوا على الموضوع وعلى التسجيل للدرجة وأصروا أن يكتبوا تقريرا يعترف أنها أفضل دراسة علمية حتى الآن !!! ولكونها أميرة وخوفا من الفضيحة بعد أن وصل موضوعي الى كبار المسئولين الذين اعتذروا لي، واعتذرت لي الفتاة، لكني أدركت أنني أحرث في البحر ولا فائدة من هذا المجتمع ولا فائدة من عطائي ولن يستفيد مني أحد، نعم لقد حركت المياه الراكدة لكني من الممكن أن أدفع الثمن: حياتي.

نصحني أحد الأزهريين الطيبين: إذا جئت الى هنا من أجل لقمة العيش فأغلق فمك وعلمهم ما يريدونه هم لا ما تريده أنت، وإن كنت تتصور أنك جئت غازيا تفتح العقول وتنير الطريق وتنقل حضارة وتنشئ جيلا جديدا فاحمل عصاك وارحل فورا، فهذا ليس الميدان، وسوف تقع في مشاكل ربما تؤدي بك الى السجن

.. قلت لنفسي: إنك تفسد خطتهم، هم يريدون الشكل - المظهر - يريدون أن تمتلىء كلياتهم وأن ينشئوا في كل مدينة صغيرة كلية، ليس المهم الكوادر التعليمية ولا التقاليد الجامعية. المهم أن يرى العالم هذه النهضة العلمية «البنائية» وأن يتصور البسطاء أن الدولة لم تدخر جهدا في تعليمهم وليس المهم ماذا يتعلمون.

هم يرضعون منذ نعومة أظفارهم كل ما يكرس اغلاق العقل وعدم الفهم وموت التساؤلات، لأن هذا حرام، هم يتعلمون علوم الدين ويكتفون بها، حتى الأدب والنقد لا بد أن يكون خاصا بالقرآن والاسلام .. كيف ؟! لا أعلم .. المهم أنهم أمة اسلامية. يريدون أدبا اسلاميا وقصة اسلامية ونقدا اسلاميا .. كيف ؟! لا أدري، لكن أحد النصابين من دكاترة آخر زمن صنع لهم كتابا ضخما من جزئين عن النقد الاسلامي !! وصدقوه واعتزوا به وأجزلوا له العطاء، حاولت أن أقول لهم ان الاسلام دين وعقيدة ولم يأت ليناقش بناء الجملة والصور البيانية والجمالية، ولكنهم رفضوا كلامي لأنني جاهل متشكك في القرآن، فالقرآن يقول لهم «ما فرّطنا في الكتاب من شيء».

كل شيء إذن في القرآن. لقد أورثتهم العلوم النقلية ضلالاً فكريا وبعدا عن جوهر الدين - ان كان هناك دين - فلايوجد دين يدعو الى التخلف، الى اغلاق العقل الى وقف الأسئلة الى الوقوف «محلّك سرّ في» انتظار المجهول، لا يوجد دين يدعو الى وأد النساء وتحريمهن كل حق في الحياة، فتكثر المفاسد والرذائل.

أدركت أن هذا المجتمع قد انتهى، فهو شعب لا يعيش، بل يمثل الحياة .. لا يعرف جمالها إلا إذا غادر السعودية، والسعوديون - حتى الفقراء منهم - يكثرون من السفر حتى يجدوا حياتهم ويتنفسوا هواء نقيا كبقية خلق الله ثم يعودون الى وطنهم يمثلون أدوارهم على أمل فسحة جديدة تتيح لهم السفر مرة أخرى. ان

الأيام التي يحياها داخل وطنه ليست محسوبة في تاريخ ميلاده لأنه فاقد للمشاعر، يذهب آليا الى المسجد يتكلم اللغة التي يريدها الآخرون، يمثل في كل حياته، في البيت وفي خارج البيت. انني أحذر من الدمار القادم. انني أخشى على هذا الشعب الذي عرفت بعضا منهم من الطيبين وهم يختلفون عن بقية السعوديين، ينتظرون الحل من السماء.

أما الأدب السعودي لا يوجد لديهم سوى شعر المديح للرسول والتحدث عن مناقبه وصفاته، وهو شعر ركيك ضعيف لا جمال فيه ولكنك يجب أن تدرّسه لهم وتخترع فيه كلاما يصلح منهجا علميا ولا تكاد تجد فيه شيئا يقال، فهو خطب بلهاء منظومة يجعل لها قافية «بالعافية» ولكن لا معنى ولا طعم ولا جمال مما يؤثر على ذوقهم ويقتل فيهم حاسة تذوق الجمال ومعرفته، والبحث عنه وتغذية العقل والقلب به. ان الشعر هو أبو الفنون صار لديهم أسوأ المواد التي درستها في حياتي لأنه ضد الجمال والحياة، معان راكدة ميّتة لست أعرف كيف يأتي بها بشر، نماذج تثير فيك الاشمئزاز من الشعر وكراهيته وتحضك على البعد عنه، يجرح الذوق ويشرخ المعزوفة الكبرى التي تعزفها الحياة لأجلنا.

أما القصة السعودية فهناك الحديث الأعجب. على الكاتب أن يصور القيم الاسلامية ويبتعد عن اثارة الغرائز واذا حدث واضطر الى اظهار مشاعر لابطال قصته، بين رجل وامرأة فحذارى ثم حذارى أن تكون بطلة القصة - العاشقة - سعودية، يجب أن تكون نصرانية تعلن اسلامها أو مصرية خليعة أو لبنانية أو سورية أما أن تكتب عن مشاعر السعوديات حتى مجرد خيال فذلك دونه القتل. لقيت أحد كبار كتاب الرواية السعودية عندهم والحقيقة لا يوجد سواه فقال لي بالحرف الواحد مجتمع لا يوجد فيه حرية لا يمكن أن تجد فيه أدبا ناضجا .. وأخبرني هذا الكاتب واسمه (ا.ن.ح) أنه تصادف مرة وكتب احدى رواياته

فإذا بأحداثها، صدفة تنطبق على إحدى العائلات السعودية ولم يكن يعرف ذلك كما أقسم لي ولكنهم رفعوا دعوى ضده وحكم لهم القاضي بأنه ارتكب جريمة التشهير بالعائلة وفضح أسرارها وتم وقف الكتاب وسحبه من المكتبات ودفع الكاتب غرامة باهظة وأخلى سبيله بعد تدخل الجهات المسئولة. وممنوع كذلك أن تتحدث عن المجتمع، فهذه دعوة للفتنة ونشر للفوضى، فالقصة السعودية تدور دائما داخل حجرات مغلقة وبيوت مسورة أما في الشارع أو السوق فهذا نوع من الحرية قد يشجع من طرف خفي على الثورة أو الهياج !! والشعب السعودي ليس مجتمع أثرياء كما يتبادر الى الذهن، ان الأثرياء قلة قليلة أما الفقراء فهم الشعب عامة وأنت تجد الفقراء والشحاذون يمدون أيديهم في الشوارع وأمام المساجد وفي الأسواق، وكثير منهم نساء غير كاشفات لوجوههن حتى لا يعرفها أحد. والرداء السعودي للمرأة وتغطية وجهها يساعد على الفحشاء والرذيلة وأعرف أحدهم ظل متتبعا لسيدة ترتدي الأسود من شعرها حتى أصبع قدميها - خيمة سوداء متحركة - حتى تصور أنه أوقعها في شباكه فاذا بها زوجته؛ ولا أستطيع أن أحكي قصصا عجيبة تصلح عملا سينمائيا كوميديا وتراجيديا على السواء.

ولا تعرف سر شقاء وتعاسة الانسان السعودي، فهو متجهم الوجه دائما، قاس الملامح، ولا يضحك أبدا، في احدى المرات كنت ألتقي بالمصريين من مدينتي الذين يعملون في نفس المنطقة من عمال بسطاء وموظفين صغار وكان لقاؤنا في احدى الحدائق، كان الفرد منهم يتقاضى شهريا ألف ريال يعيش ويسكن ويأكل ويوفر منها ولكنه راض عن حياته سعيد الى حد ما، يضحك كبقية خلق الله، سألني أحد السعوديين في ذلك: أنتم يا أخي تعانون ولا تجدون وتضحكون !! لا أجد يا أخي سببا واحدا في حياة أحد المصريين الذين يعملون عندي للضحك لكنه يضحك وأراه مبتسما

دائما، وأنا أحقق الصفقات ومالي يتزايد ولا أجد فرصة للسعادة أو طريقة أضحك بها وابتسم مثلما تفعلون. ومع أن المظاهر الخارجية تدعو كل سعودي أن يعيش مرفّها سعيدا فلا توجد ضرائب ولا جمارك ولكنهم رغم كل هذا لا يجدون الابتسامة ولا يعرفون سر ضحكة شاردة يحتاجون اليها ويبحثون عنها. الضحك تجلية القلب من الهموم، بلسم شافي وهبه من الله للبشر، لكن هذه الهدية قد تحجبها السماء عن آخرين لعلة قد تجهلها.

أين إذن الأسرة المسلمة ؟! أين المجتمع الاسلامي ؟! غالبية السعوديين لا يحبون الغريب ولا يحترمونه لأنه من وجهة نظرهم يأتي ليسرق فلوسهم، لا ليعمل من أجلهم، والحكومة تغذي فيهم هذا وتطمئنهم كل قليل «بالسعودة» أي تحويل الوظائف الى سعوديين واحلال العمالة الوطنية بدلا من الأجنبية، والأجنبي هو كل جنسيات العالم بما فيهم المسلمين - لا فرق - فهل هذا هو الاسلام ؟! ومع أنني لم أكن مجهولا لهم، فقد شاركت في منتدياتهم، وكتبت في صحافتهم وأسست نوادي ثقافية في البيوت الكبيرة التي كان أصحابها من هواة الثقافة والأدب كوجاهة اجتماعية - وليس كهدف في حد ذاته - إلا أنني كنت كثيرا ما أواجه الحقد الأسود والفعل والنظرة المتعالية، وأعترف أنني لم أترك هذه المواقف تمر مرورا عابرا، بل كنت ألقنهم درسا في الذوق والأدب والسلوك الإسلامي اذا شاءوا أن يكونوا مسلمين، فالإسلام آخي بين الغرباء فصهيب «الرومي» وعيسى الغواص «النصراني» أخوة في الدين، لا اختلاف بينهم في الألوان أو الطوائف أو المشارب، لم أر صورة لهذا التآخي المزعوم في السعودية. فهي مهبط الاسلام، وأرض باركتها السماء لنزول الوحي فيها على محمد، فهل هذا هو المجتمع الاسلامي النموذجي؟! ان الرسائل السماوية لا تنتج سوى الحب والتواضع والأخوة في الله فأين ذلك كله مما رأيت هناك ؟

وإليك هذه القصة:

في إحدى المرّات حدث أن اصطدمت سيارتي بسيارة أحد الأشخاص الذين يرتدون الزي السعودي (الجلباب والعقال) وقفنا في مكاننا وكنت أنا المخطىء، اعتذرت لصاحب السيارة وأبديت استعدادي لدفع المطلوب لاصلاح تلفيات سيارته، لكني فوجئت بأدبه الجمّ واتضح لي أنه يمني الجنسية وعرفني وأثنى عليّ وقال أنها فرصة طيبة أن ألقاك، وأنا لا أريد شيئا، عوضك الله عن سيارتك وهذا عنواني اذا احتجت أنت لشيء في سيارتك لأنني صاحب ورشة اصلاح سيارات، ولكن الشرطة وصلت الى موقع الحادث، فماذا حدث ؟! نزل أحد العساكر فسلّم على اليمني - يظنه سعوديا - وأهملني تماما وقال له حمد الله على سلامتك، ان شاء الله خيرا، أما أنا فلم يلتفت اليْ ولا سألني عن شيء رغم أن سيارتي كانت مهشمة تماما من الأمام ولو كنت في بلاد الواق واق لشعرت بتعاطف البشر معي وكدت أقول له انه ليس سعوديا ولكنه يمني كي أغيظه «وأحرق دمه» لكراهيتهم لليمنيين، ولكني قلت لنفسي ما هذه التفاهات، هل تصل الى هذا الحد، انهم ليسوا بشرا !! هو شعب مريض أولى أن نبكي عليه لا أن نغضب منه أو نحزن لتصرفاتهم. شعب وأودّ مشاعره وأودعها في حفرة نائية، لا يرى سوى نفسه، وذاته وملذاته. هل هذا هو المجتمع الاسلامي ؟!

دخلت في نقاش حاد مع أحد الأصدقاء السعوديين «المحترمين» وكان يعرف الحقيقة وهيأت له فرصة دراسته في الخارج أن يراقب البشر في بقاع العالم، ويجدهم يختلفون جميعا عن أبناء وطنه. كان يشعر بالاشمئزاز من التحجر والضلال والكراهية العمياء لبني البشر فاذا كان هذا هو «منتوج» الاسلام، فالإسلام إذن ليس بدين سماوي، بدليل أنه لم يغيّر هذا البشر المتعصب الشديد الحماقة. قلت له انني أشك في الاسلام حين أرى

تصرفات مجتمعك السعودي، انني لم أقتنع بالاسلام في بداية إدراكي وتكويني الفكري إلا حين قرأت أن المسلمين الأوائل كانوا فرقا متناحرة جمعها ووحد بينها الإسلام بالحب والعدل والمساواة، فأين هذا الحب وذلك التسامح ؟! درّسوا لنا أن المسلم يتخلى عن داره واحدى زوجاته - إذا كان متزوجا بأكثر من واحدة - ويخيّر أخاه المسلم القادم عليه من مكة ليختار إحداهن فيطلقها لتتزوج من أخيه في الإسلام فيما عرف بالتآخي بين المهاجرين (من مكة) والأنصار (من المدينة). أين هذه الحكايات؟! أم ترى أنها مجرد أقاويل وروايات كاذبة ؟! أليس هذا هو المجتمع الذي جاء منه الإسلام ؟! أليست هذه هي الأرض التي خرج منها محمد وأصحابه ؟! أين الخير ؟! لا أراه !! أين الحب والتسامح ؟! لا أراهما، أنني لا أرى إلا الحقد والغل والكراهية والغدر، إذن فالإسلام ليس دينا سماويا.

أين الأسرة المسلمة وأنا أرى مجتمعا هشا وعائلات مفككة وضحايا لأنانية الرجل. أين المرأة في الاسلام، انها «موءودة» ما تزال و «إذا الموءودة سألت بأي ذنب قتلت» - كما يقول القرآن -

مدينة من الزجاج يستطيع أي حجر صغير أن يهشمها ويتركها أشلاء، مدينة مبنية على الرمال لا أسس ثابتة ولا قواعد، لا تقوى على الصمود في وجه أي عاصفة هواء تلك هي السعودية مهبط الوحي وأرض الإسلام. هل أكذب؟! لقد احترمت القارئ ولم أذكر تفاصيل يندى لها الجبين، جئت إليهم لأتزود بالتقوى والايمان وأعرف الله وأنقذ نفسي من الهلاك فإذا بي أرى عالما من المسخ المشوهة: قلب متحجر ورفض تام للآخر مهما كانت مكانته وعلمه ودينه، وتعصب أعمى ضد أي انسان لا يحمل الجنسية الشريفة «السعودية» !!

أعترف أنني قاومت نفسي وجالدتها حتى لا أسقط .. أعترف أنني بذلت مجهودا مضاعفا لكي أبقى نظيفا أمام نفسي حتى

يكشف الله لي عن نفسه .. لقد جئت لأجل هذا الهدف، فأنا لا أحب المال ولا يدخل في أولياتي، لذلك لم أدخر من هذه الرحلة التي استمرت ثلاث سنوات شيئا. اللهم إلا ثمن السيارة بدلا من سيارتي القديمة. كانت الرحلة بحثا عن الخلاص والآن أزددت ضياعا وحيرة، فلو كان الاسلام مجرد تعاليم لأحد المصلحين الطيبين لما خرج من تحت عباءته هذا الصنف من البشر !!

غالبية السعوديين لا يفكرون إلا في شيئين: فرجه وبطنه، هذا ما رأيته وعاينته وشهدته بنفسي .. هذا بلاغ أقدمه لله نفسه، تعالى شأنه، يا ربي أنت تعلم أنني لم أقل سوى القليل جدا حتى لا أجرح حياء المؤمنات الصادقات اللائي سوف يقرأن كتابي، يا ربي أنت تعلم كل شيء فانني أرفع اليك شكواي بحق الفساد والشر الذي رأيتهما هناك مما يذكّرني بآل لوط وما جرى على شاكلتهم، تعلم أنني لم أحك كل شيء، أرفع اليك صلاتي وأنت تعلم الصورة الحقيقية التي رأيتها أنا وتأكدت منها أن تعمل يا ربي على تغييرها لخير البشر، فهم جميعا أولادك. يا ربي أنت الآب الحنون تحنن عليهم لا تتركهم في غيهم وفسادهم، لا تتركهم للضلال، هاتهم اليك يا ربي، أدخلهم حظيرتك من غيرك الراعي الصالح الذي يمد يديه الى خرافه .. يا ربي ان انتشر فساد هؤلاء فسوف ينتشر الخراب على الأرض، أنقذ البشرية يا رب.

البشر فاسدون إذن، ولا يوجد مسلمون، فلأبحث إذن عن رب الإسلام، لأذهب إليه وأبثه شكواي وأصرخ في وجهه طالبا الخلاص والسلام .. لا خير في هذا المجتمع ولا تبحث عن الله فيه. مجتمع له نوعان من الحياة، نوع داخل السعودية ونوع آخر خارجها.

المرأة السعودية ترتدي أحدث الموضات وتضع أغلى العطور وإذا حدث وكنت من ركاب إحدى الطائرات الخارجة من السعودية

فسوف ترى العجب بعد أن تعرف أن داخل هذه الخيام السوداء المتحركة إمرأة، اذا بك بعد أن تقلع الطائرة تبحث عن الخيام السوداء فلا تجدها، لقد خلعن خيامهن - ملابسهن - وأبدين جمالهن وزينتهن ونهودهن بأحدث صيحات العصر لفساتين أنيقة أو تاييرات ضيقة تظهر أكثر مما تستر. أين الإسلام ... ؟! أليس رب الإسلام الذي في السعودية هو نفسه الذي يوجد في مصر أو دمشق أو لبنان أو أمريكا ؟! أنهن يرتدين الزي الاسلامي - إن كان للإسلام زي خاص به - ليس عن إيمان ولكن كتقليد وعادات سهلت هذا النوع من الحياة التي يعيشونها.

إن الرجل السعودي يخفي زوجته حتى عن أخيه حتى لا يطمع فيها، ويخفي ابنته عن أقاربه وأصحابه حتى لا يغرر بها أحد منهم .. إنهم يفعلون ذلك لأنهم يفتقدون الأمان فيما بينهم أما خارج الوطن فالناس أسوياء أصحاء لا ينظرون الى نساء أحد ولا يبحثون عن الشهوة لأنها ليست هي كل الحياة كما في أذهان السعوديين. في السعودية نحن في غابة كل منهم يخشى على نفسه، وخارجها ينعمون بالأمان ويتأكدون أن أحدا لن ينظر اليهم فالنساء تملأ الأرض والبشر لا ينظرون للجنس هذه النظرة السعودية !!

مرة أخرى، أين الأسرة السعودية المسلمة؟! أين السلوك الإسلامي؟! المفترض أن أرى الصدق كله والنقاء والجمال والروحانيات، التسامح والمحبة والصدق، أرى سلوكيات مضيئة طيبة تكون عوامل جذب للآخرين، وتصبح خير دليل عن جوهر وحقيقة الإسلام.

زادت حيرتي وتعمقت نظرتي في رفض الإسلام، ولكني أقنعت نفسي بدافع الحيدة العقلية والإنحياز الى المنهج العلمي، هذا هو حال المسلمين هنا - نعم ليسوا أي مسلمين - لكنهم أبناء وأحفاد

رسول الإسلام وأصحابه وإذا كانوا على هذه الشاكلة فأي خير ترتجيه، إذن فلأبحث عن الإسلام وأدع المسلمين فهناك فرق - لا يجب أن يكون - بين المسلمين والإسلام. إذ قد يكون المبدأ عظيما ولكن الناس لا تعمل به، لماذا إذن تحكم على الاسلام من باب المسلمين؟! لماذا لا تسلم قلبك إلى الله وتطلب منه السكينة والأمان وأن يجد حلا لمشكلتك؟! كنت أداوم على الصلاة وقراءة القرآن، مع أن القلب قد صار مغلقا بعد اكتشافي حقيقة الصورة هنا في السعودية، تأكد لي أنه كله، وهم صنعه هؤلاء البدو وأرادوا أن يفتنوننا به من باب الإمارة والتجارة والمصالح ليس إلا !! الآن جاء أوان المشاعر، فلتتحدث المشاعر الآن، لأعطيها الوقت كي تبزغ وتعرب عن نفسها، كي تبحث عن الحق، إذا كان رب الإسلام صادقا فسوف يناديني لا تدخل نفسك في تيه الكفر والإلحاد. لا تعص الله خالقك. هيا الى الكعبة!!

كنت مع موعد مع الحبيب - هذا ما صورته لنفسي - وبروح كلها تطلع الى الخير والسلام، ذهبت أبحث عنه في بيته، في الكعبة التي بناها ابراهيم وساعده ابنه اسماعيل كما يخبر القرآن بذلك، وصلت ليلا، فبهرتني الكعبة، بأنوارها السماوية ورخامها الأبيض الناصع والجموع المحتشدة بثياب بيضاء كأنها الملائكة - هكذا تصورت - هفهف قلبي وصرخت فرحا: هنا أجد الإله الذي أبحث عنه طويلا، طفت حول الكعبة، دعوت الله بكل ألوان الأدعية التي حفظتها والتي قرأتها كانت صلوات طيبة تهز الصخر بليغة كالسحر، أحد هذه الأدعية قال رسول الاسلام حين ذهب الى مدينة الطائف - السعودية يدعو أهلها إلى الإسلام وخرج إليه أطفالها وسفهاؤها وضربوه بالطوب والحجارة حتى أدموا قدميه وجلس يحتمي من حرارة الجو تحت ظل شجرة في بستان ورفع يديه الى السماء وقال هذا الدعاء: اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وربي، إلى من تكلني؟! الى بعيد يتجهمني أم إلى

عدو ملكتــه أمـري؟ إن لم يكن بك غـضب عليّ، فـلا أبالي ولكن عافيتك أنفع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليـه أمـر الدنيـا والآخـرة من أن تنزل بي غـضـبك أو يحل عليّ سخطك لك العتبى حتى ترضى.»

ما أروع.وأجمل هذا الدعاء، انه يحرك الجبال، قلته باكيا، طلبت منه أن يريني الإيمان الحقيقي، أن يكشف لي عن جوهره، أن يهديني الى السعادة والهناء والسلام. لم أطلب شيئا من عرض الدنيا الزائل فأنا لا ينقصني شيء لقد جاء في فضل هذا الدعاء الشيء الكثير قيل لنا أن السماء تهتز لهذا الحديث، فأين كل ذلك؟! لماذا السماء تصدني ؟! لماذا لم أشعر بنور داخلي يقول لي كلمة واحدة. قلت لنفسي ما أزال عبدا مذنبا اقترفت الكثير من الخطايا، أتريد الله أن يعطيك بسهولة، لا بد أن تذل نفسك لله حتى يرفعها بنفسه أن تعفر وجهك في التراب حتى يرضى عنك، أن تداوم العبادة وزيارة الكعبة المشرفة التي تجد فيها بهاء وجلال نور الله.

اقتربت من الحجر الأسود، قيل أنه قطعة من الجنة ومن قبّله شفع له يوم القيامة، وتخلص من كل ذنوبه في الدنيا. وقفت أسأل نفسي أليس هذا الحجر الذي كان موجودا قبل الاسلام وقصوا علينا قصة الرسول محمد حين كان صبيا يافعا لم ينضج بعد وكان يلقب بالأمين لأمانته. والصدّيق لصدقه، والحليم لرجاحة عقله، كان رجال القبائل الرئيسية في شبه جزيرة العرب أربعة من أكبر القبائل يتشاجرون فيما بينهم حول من يرفع الحجر الأسود من على الأرض ويضعه في موضعه بين جدران الكعبة - بيت الله - إذ كانوا يعيدون بناء البيت بعد أن جرفته السيول والأمطار ولما اختلفوا فيما بينهم قالوا نحتكم إلى أول عابر في الطريق ليحكم بأحقية أي منا في حمل الحجر الأسود ونيل شرف السيادة، فرضوا بهذا الحل وأقبل من بعيد الصبي

محمد ولم يكن قد كبر بعد ولكنهم رضوا بحكمه لما اشتهر عنه من مكارم الأخلاق، وجاء محمد وبسط رداءه على الأرض ورفع الحجر الأسود عليه وأعطى الأطراف الأربعة لكل شيخ قبيلة من القبائل الأربعة المتناحرة وانتهت المشكلة وعم السلام نظرا لعبقرية محمد !!

فكرت في قصة الحجر الأسود فهو موجود قبل الإسلام حين كان العرب يعبدون الأصنام، ولا أستبعد أن يكون صنما أو بقايا صنم من الماضي - هل جاء الوقت لكي أقبّل الأصنام وأنا بهه الثقافة والفكر، ما هذا يا (...) عد من حيث أتيت .. إرجع إلى عقلك .. جاهدت وطردت الأفكار، لا بد أنها من الشيطان الذي يحاول أن يضللني، كل هذه الجموع تقبّل الحجر الأسود وترقى به وتقتنع وأنت ما تزال تفكر ثم تفكر وترفض العبادة التي أمر بها الإسلام. الله نفسه هو الذي أعطاك الدكتوراه التي أفسدت عقلك وجعلتك تنظر بتميز وتفاخر الى نفسك فتعجب بها ويأخذك الغرور والإحساس بالذات. لا بد أن تهزم ذاتك وتتخلص من تكبرك، هيا عد الى الكعبة من جديد!!

وعدت الى الكعبة في الأسابيع التالية، صرخت بدعاء جديد من كل قلبي: «يا لا إله الا أنت، برحمتك أستغيث وعفوك أرجو، أصلح لي شأني كله ولا تتركني طرفة عين..» وعدت إلى الطواف ووصلت إلى الحجر «المشكلة» فأبيت أن أقبّله، تحجّر قلبي، هرب الورع من قلبي ومشاعري صرخت في وجه الله بصوت مسموع أين أنت ؟! لماذا تبتعد عني ؟! أليس هذا بيتك ؟! أليس هذا الحجر حجرك ؟! لماذا تعلمني التمرد إذن؟! لماذا لم تخلقني كهؤلاء البسطاء أتبعك دون فلسفة أو أدلة .. لماذا أثرت داخلي الأسئلة وأنا لا أجد اجابات عنها ؟! قرأت أن رسول الإسلام كان يقول «اللهم ارزقني ايمان العوام ..» بمعنى إيمان البسطاء من البشر الذين لا يتساءلون ولا يفكرون ولا يتكبرون على الله بطلب الأدلة، وهل الله مثلك، حتى تحدثه هذه اللغة ؟! هو إذن لا يريدك!!

رفضني الله .. تأكد لي ذلك حين تركت البحث عنه، وانصرف قلبي إلى إحدى الجميلات اللاتي كن يتبخترن في صحن الكعبة .. خرجت استغفره وأطلب رضاه وأيقنت أنني عبد متمرد لن يجدي معي الإسلام. ولكن فجأة قلت لنفسي ان الذي يصيبك بالاشمئزاز ويقف أمام طريقك الى الله هو ذلك الحجر «العقدة». فلنبحث في مكان مقدس آخر بعيدا عن الحجر الذي لم أهضم قصته ولا قبلت أن الله أرسل لنا حجرا من الجنة نتعبد به!!

والحقيقة الظاهرة لي أن محمد رسول المسلمين خاف من سطوة موضوع الحجر باعتباره مسألة اقتصادية بحتة، وتفاوضت معه القبائل ألا يقترب من كعبتهم التي يحج إليها العرب من كل البقاع وتوفر لأهل مكة الفقراء موردا ماليا ليس بالهين التضحية به، لقد طالبوه فيما يبدو أن يدخل كعبته في دينه الجديد – مشروعه الجهنمي – فقبل على شرط أن يؤمنوا به .. هكذا تمت الصفقة وأي سيناريو آخر يمكن أن نتخيله إلا أن يكون هذا الحجر من الجنة.

ذهبت الى مكان آخر مقدس عند المسلمين، أنه المسجد الذي دفن فيه محمد رسول المسلمين، وقد عظمه محمد، فقال: لاتشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام بمكة – أي الكعبة – والمسجد الأقصى، ومسجدي هذا .. ووضع محمد درجات – تشبه درجات نجاح الطلبة في الشهادات – لكل مسجد، فالمسجد الحرام بمائة ألف درجة، والأقصى بعشرة آلاف درجة أما مسجده فبألف درجة فقط (لماذا التواضع يا محمد وقد كتبت اسمك مقترنا باسم الله، فالتشهد يقر بألا إله إلا الله محمد رسول الله. هذا تناقض آخر، وعلى ذكر الدرجات وأعمال السنة فهناك ليلة نبه إليها القرآن وهي بألف شهر أي ٨٠ سنة ثمانون عاما..!!» وعليك بهذا أن تصلي وتصوم وتقوم ليلتين من هذه الليالي «ليلة القدر» ١٦٠ سنة ثم تزور الكعبة لثمانة أيام متوالية لتحصل بعدها

على مليون ونصف الدرجة لا بد أنها سوف تؤهلك للالتحاق بنوع الجنة التي ترغب فيها لأن مجموعك كبير !!

لنعد الى موضوعنا

لم ينفع معي المسجد أبو «مائة ألف» فيجوز أن أبو «ألف» فقط سوف يجدي معك .. لماذا لا تجرب؟! ذهبت الى مسجده - محمد - الى موضع مميز نبّه إليه رسول الإسلام كثيرا سمّاه (الروضة الشريفة)، وهي مكان تستجاب فيه الدعوات وتشفى الأمراض ولا يسأل احدنا شيئا إلا ناله. انتظرت من الثالثة صباحا أمام باب المسجد الكبير، وحين فتحوا الباب فجأة قبيل الفجر دلفت سريعا سعيدا الى الداخل لأني وجدت مكانا فسيحا بالروضة الشريفة وسوف أشكو الى رسول الله وأخبره أن الله لم يقبلني وهو لن يسكت عني .. أخذت أقرأ القرآن وأدعو وأصلي وأبكي وأخشع وأطلب من الله .. ومن رسول الله أن يعطيني السلام ويهبني الإيمان الحقيقي، ورفعت يدي بدعاء جميل كنت أحفظه وأجد فيه حلاوة قلت: إلهي.. كيف أدعوك وأنا أنا. وكيف لا أرجوك وأنت أنت ؟! إلهي.. إذا لم أدعك فتستجيب لي فمن ذا الذي أدعوه فيستجيب لي ؟! إلهي.. إذا لم أسألك فتعطيني فمن ذا الذي أسأله فيعطيني ؟! إلهي.. اذا لم أتضرع اليك فترحمني .. فمن ذا الذي أتضرع اليه فيرحمني ؟! إلهي.. فكما فلقت البحر لموسى عليه السلام ونجيته، أسألك أن تصلي على محمد وآله: وأن تنجيني مما أنا فيه عاجلا غير آجل برحمتك وفضلك يا أرحم الراحمين».

ماذا بعد هذا يمكن أن أقدمه .. إنها دعوات صادقة حارة من قلب يتوق إلى نور الله .. ولكن لا مجيب لما أدعو، وكل الذي طلبته منه جاءني عكسه تماما - أيقنت أنني عبد سيئ لا يريد الله أن يهبه الإيمان الحقيقي أو السلام الداخلي. كنت بينما أقف

أمام قبر رسول الإسلام أسأل نفسي: ياترى اذا حفرنا هنا هل نجد شيئا !! يقولون أن جسد الأنبياء والأولياء لا يبلى أبدا، ترفض الأرض أن تأكله والدود أن يقترب منه تمنيت لو أتيح لي أن أحفر على قبر محمد بحثا عنه حتى يستقر ايماني ويهدأ الشك الذي اشتعل في أعماقي ..

كان بودي أن أجد شيئا يعرب لي عن وجود الله - تمنيت أن يقول لي أنه موجود بأي طريقة حتى لو كانت فيها أذى لي .. المهم أعلم وأعرف وأتأكد حتى يهدأ قلبي الحائر المزمجر بالثورة .. كنت أريد الدليل بعد أن أعوزني الدليل .. تعبت نفسي، كلّ قلبي وملّ .. لم يعد هناك أمل يرتجى، فإله الإسلام لا يقبلني وأنا لم أعد أؤمن به. عدت من رحلاتي المكوكية الأسبوعية بقلب مكسور عرضته على الله فلم يقبله أصبحت محطما، لا أنام .. عدت من جديد إلى حياة العبث واللهو .. ثم سرعان ما أجد صوتا في داخلي يصرخ لي، هل ترضى أن تعيش بدون إله؟ هذا الكون العجيب وهذا النظام الدقيق، أليس هناك صانع وخالق تتحدث عنه صنعته ؟! لكن أين الطريق ؟! لأجرب مرة أخرى.

قالوا لي إن العمرة - أي زيارة الكعبة والطواف حولها تختلف في الدرجة عن الحج فشعائره الأكبر وروحانياتها تطهر النفس وتعيد السكينة والطمأنينة والايمان الى قلب المتشكك، ولكني قلت لو كان هناك خير لظهر لي من البداية أي حج أذهب لأرمي إبليس بالحصى ؟! رفضت الحج وقلبي امتنع عن الثقة في طقوس الحج ورفض قبولها ..

كان الاستقرار النفسي بعيدا جدا عني .. كنت أنام ليلا وأنا لا أصدّق أن الصباح سوف يطلع عليّ، شيء مثل الأرواح الشريرة أضحى يطاردني في نومي، أشباح وأحلام مزعجة وصراخ وأزمات عنيفة أرى نفسي فيها مشرفا على الموت فأصرخ

فلا يخرج صوتي ويتحشرج .. أدركت أنني ميّت لا محالة بسكتة قلبية أو ذبحة صدرية نظرا للمجهود الشاق الجبار الذي تحمّله قلبي وعقلي، كانا يعملان باستمرار، حملت أسئلتي عن الله - فوق كاهلي، اعتصرت ذهني حتى شعرت أن ماء الحياة يجف فيه رويدا رويدا. كنت أقوم من نومي صارخا: ماذا تريد مني؟! أين أنت ؟! لماذا لا تقترب مني اذا كنت موجودا حقا؟! هل تريد أن تغيظني؟! وأردد بيني وبين نفسي: هو موجود لكنه بعيد عني غير راض عني، لا يريد أن يكلمني، وأعود لأقول لنفسي وماذا فعلت من جرم عظيم لا تقبل الاعتذار عنه يا ربي؟! ماذا اقترفت من آثام حتى تصمّ أذنيك عني؟! لكنه على أي حال هو ليس رب المسلمين، هو رب آخر، فالمسلمون لم يعد هناك خير يرتجى فيهم.

كنت وحيدا هناك، لم أحتمل وجود أحد معي، وددت أن أتزوج وأعيش ولكن مشروعاتي كانت تفشل باستمرار فشلا ذريعا لا يزيد عن أسبوعين أو ثلاثة .. وأمر بالغ الغرابة كان يحدث معي، كنت دائما لا أجد من المرتب الكبير شيئا أدخره كل شهر بل كنت مديونا في أغلب الأوقات، كم من السيارات أشتريتها متسرعا ثم أبيعها وأنا لا أعرف لماذا؟ وكنت في كل مرة أخسر نصف ثمنها على الأقل لم أكن بالطبع أشتري وأبيع بقصد المكسب - ولكن دون أن أعرف لماذا يحدث هذا؟ هل بقصد التغيير؟! هل هو توق الى الجديد، أي جديد، هل الله يريدني أن أخرج من هذا البلد صفر اليدين؟! هل يغلق أمامي كل الأبوب إلا باب واحد يفتحه لي على استحياء لأستطيع أن أرى بابه بين الأبواب الكثيرة أمامي؟! لا أدري حتى الآن .. هل البلد المسكون بالشياطين تسلّط عليّ ومنعني من التوفيق؟! هل رفضي لله جعل البركة تبتعد عن طريقي؟! أسئلة عانيتها، أنقلها اليك عزيزي القارئ كما هي .. لكن الذي يلوح لي الآن أن مجرد الحركة ولو ضد المصلحة كانت بديلا عن الموت، مجرد أن أفعل شيئا ما حتى لا أدع لنفسي فرصة المواجهة مع ذاتي منفردا بها.

كنت أخاف من نفسي ومن أسئلتها ومن المواجهة التي كادت تحطمني. ملأت شقتي بالأصدقاء، بعضهم كان يبيت معي من المصريين والسعوديين من الشيعة، كنت أتولى الانفاق عليهم المهم ألا يتركوني وحدي أبدا. غيّرت الشقة مرات، اقتربت من الجنون، لا بل هو الإلحاد.. انكار وجود الله .. لا لم أصل أبدا الى درجة الانكار، لقد أنكرت إله المسلمين أما الكون فله رب عظيم، لكنه يلفظني، لا يريدني، وإذا كان يريدني فأين السبيل اليه؟!

في هذه الظروف السيئة منحتني أرض الأحزان واحدا من أفضل كتبي، كتبته كنوع من التطهير، بحثا عن الشفاء من جرح الكآبة والأحزان جروح نفسية أصابتني في مقتل، وكانت الكتابة علاجا لي، إحساسي بالقهر والغبن وأن الله لا يريدني، ملأني باليأس القنوط، كان الكتاب الذي أخرجته احدى أكبر دور النشر في العالم العربي - صرخة ضد الكون أطلقها في وجه الرب، بذلت دموعا حرىً وأنا أكتب عن المتاعين المحزونين، المكسوري القلب مثلي عسى أن أجد العزاء، كانت الكتابة «فعلا» ايجابيا وحيدا أملكه في ذلك الوقت ضد التلاشي الذي يجتاحني ويدمر نفسي ويتركني أشلاء مبعثرة. كانت الكتابة هي «فعلي» الذي أقدر عليه، لم أستطع أن أكون مجرد منفعل في هذا العالم الفسيح المترامي الأطراف. انكفأت على ذاتي ودموعي بمداد الحروف، كانت لحظات رائعة لن أنساها. وكانت أشبه بالصلاة الى رب آخر يناديني من بعيد وعلى استيحاء.

قربتني الكتابة من منطقة الله - قربتني من جديد من آدميتي من ذاتي، من نوري الذي انطفأ فرحت أوقده بصراخي - من داخلي المفعم بالحب والصدق والتسامح.

كان من المقربين الى قلبي أحد الشعراء الشبان من السعودية، رأيت في قلبه حبا وطيبة ونقاءا عكس السعوديين وربما جمعه بي

إحساسه بذا وأننا في قارب واحد فهو ينتمي إلى الأقلية الشيعية التي تعاني الأمرّين على يد السعوديين. قرأت كتبهم ونظرت في معتقداتهم فاذا بهم يعتقدون في الأئمة - البشر - وينادونهم ويزعمون أنهم يسمعونهم وينتظرون الإمام الغائب الذي سوف يأتي ليملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا وهو الامام الثاني عشر، فقد قتل السنيّون الائمة واحدا بعد الآخر من الشيعة ولم يتركوا لهم أحفاد أما آخرهم فقد كان طفلا تم إخفاؤه عن العيون ثم ظهر للناس لما كبر وكان يبشرهم بآل البيت النبوي واستطاع أهل السنة الكيد له وقتله غيلة وغدرا لكنه رفع إلى السماء وما يزال يتجول في القرى والمدن وإذا ناديته فهو يسمعك ويجيبك ويقدم لك العون والمساعدة، فهو نبي آخر الزمان، ويعتقد الشيعة أن الرسالة كانت في طريقها إلى علي ولكن محمد اغتصبها لنفسه. وهم يلعنون أبو بكر وعمر وعثمان ولا يعترفون بالخلفاء الراشدين لكن المزعج جدا في أمر الشيعة موضوع الزواج، أعني زواج المتعة وهو زنى مقنع، وتجمع الروايات على أن هذا النوع من الزواج كان معروفا أيام محمد ولكن عمر أبطله وبذلك فقد أبطل سنة سادت أيام الرسول.

وزواج المتعة أن تقول لمن تعجبك صيغة معينة، وتنقدها أجرها ثم تنام معها كما يحلو لك من وقت محدد اتفقتما عليه ثم تطلقها باللفظ وتفك قيدها من الزواج. حاول «علي» - هذا الشاب الشيعي الطيب - أن يقنعني بزواج المتعة، فقلت له يا علي بعيدا عن الدين والتدين إن الذوق نفسه يأباه فلنكن واضحين من يريد أن يمارس الحب لماذا يريد رخصة من الدين؟! هل صار الإسلام متجرا تشتري منه ما يعوزك من شرائع وفتاوى؟! كشف لي الصديق السعودي عن زواج آخر ابتدعته «السنية» وأصدروا به قرارا ممهورا بتوقيع المفتي وهو ما يعرف بزواج «المسيار» كأن تكون سيدة مات زوجها ولديها مسئولياتها أمام أولادها الكبار أو المجتمع، وهو كذلك لديه بيته وأولاده فيجوز لهما الاتفاق على

زواج يأتيها في مكانها أو تأتيه في مكان محدد كل أسبوع، دون أية مسئولية في تكاليف الزواج أو غيره، وكذلك أن يكون الزواج سرا!! هذا الزواج أقره جهابذة الإسلام الذين أفسدوا كل شيء طيب، لا يعترفون بالحب والمشاعر الشفافة ويخترعون تسميات كثيرة للزنى تحت اسم الزواج. هل تفعل طائفة أخرى من أي دين أو ملة هذه الأفعال وتخترع طرقا للتحايل على الشرع الذي يزعمون أنه جاء من السماء، واذا كان هناك دين تستطيع أن تعبث بمبادئه فما يدريك أنه دين صحيح؟! لماذا لا تكون القصة من أولها كذبة كبيرة، الذي يكذب في الصغيرة يكذب في الكبيرة.

الجو الموبوء بالأكاذيب والضلالات في السعودية يجعل كل شيء مسموما. فالغايات التي تبدو نبيلة على السطح كلما تعمقنا وتوغلنا فيها وجدناها غايات دينيوية تهدف الى إظهار الشكل الإسلامي والتقاليد الإسلامية. من ذلك على سبيل المثال جماعة تسمى «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[1] معظمهم من خريجي السجون والمعتقلات، أعلنوا توبتهم وتظاهروا بالايمان فاستعانت بهم مراكز هذه الجماعة التي لها موقع ومقر في كل قرية ومدينة وسيارات حديثة مجهزة وامكانيات مادية هائلة، تسعى في الشوارع والأسواق، وقت الصلاة فإذا لم تجد المتجر مغلقا حولت صاحبه الى السجن لمدة شهر ويمنع فتح المتجر خلالها واذا وجدت إنسانا يسير في الشارع وقت الصلاة تستوقفه وتأخذه الى الحبس لمدة ثلاثة أيام لأنه لم يؤد شرع الله !! وكثيرا ما تراهم في الأسواق يتعقبن السيدات والفتيات الجميلات يقلن للجميلة «غطي وجهك يا امرأة» أما غير الجميلة فترى العنف والشدة وربما يقبضون عليها ويأمرون بسجنها ثلاثة أيام لأنها

---

(١) تتحدث الأخبار هذه الأيام عن مأساة تسببت فيها هذه الجماعة التي رفضت دخول رجال الإطفاء الى مدرسة بنات شب فيها حريق كبير لأن الطالبات كشفن عن وجوههن كما رفضت الجماعة خروج الطالبات حاسرات الرأس – دون غطاء مما تسبب في مأساة اختناق وقتل أكثر من سبعين فتاة تناقلت وكالات الأنباء هذه المأساة في منتصف مارس ٢٠٠٢.

تنشر الفتنة وتظهر وجهها .. أما الجميلة فهي لا تفتن أحدا وربما تفهم اشارته ويتفقان على الموعد وأما لا تفهم المعنى الخفي، أو ترفضه وتغطي وجهها وتترك المكان فورا، ويجوز - للأمانة - أن يوجد مخلصون طيبون هدفهم الشرع وحده ولكني لم ألتق بالمخلصين أبدا، وربما قابلت بعضا منهم أسوأ مما تظن!!

كنت مع صديقي الشيعي في مركز بيع السيارات، ولم تنته أوراق السيارة حتى وقت صلاة العشاء، انصرف الجميع الى الصلاة وأطفأوا الأنوار، وظللت أنا في المكان مع صديقي فالشيعة لا يصلون في مسجد خلف إمام من السنة أبدا، ولا يدخلون مساجدهم ولهم تقليد غريب في الصلاة إذ يضعون «طوبة أو قطعة حجر صغيرة» يسجدون عليها بشرط أن تلامس جبهتهم، وجاءت الجماعة بصحبة اثنان من رجال الشرطة، فرحين متهللين بالصيد الثمين، يجمعون في سيارة الذين لم يؤدوا الصلاة ولم يدخلوا الى المسجد، وكانوا بقيادة شاب لو ضربته قلما واحدا لخر على الأرض راكعا، وكان يضرب بقسوة بعض الهنود والباكستانيين المسلمين الذين وجدهم في مكان أخر وكأنه الحاكم بأمر الله، وقد استفزني هذا المنظر، كذلك وجد أحد الفلبينيين فقال له لماذا لم تصل قال له أنا مسيحي، فصرخ صرخة عظيمة كافر .. ورمى له «الهوية» على الأرض وداسها بأقدامه.

بدا الشاب الصغير كفاتح عظيم من أبطال الأساطير، أعجبته قوته بعد أن ألقى الرعدة والفزع في المكان كله ووقف الناس - الغرباء - مثلي - يرتعشون، وقلت إنها فرصة أن ألقنه درسا لعله يعيه، خاصة وانني «قرفان» وأريد الرجوع الى مصر على أهون سبب، تقدم مني هذا الشاب وقال لي «بمنظرة - واحتقار»: هويتك؟! أجبته محذرا مالك وهويتي؟! لم يبق إلا أنت تأخذ هويتي - لن تأخذها مني بالطبع لأنه ليس لك الحق في ذلك! قال بعجرفة وقد فوجيء بما لم يتوقعه: أنت لم تصل ورفضت الدخول الى

المسجد رغم سماع الأذان، فيجب أن تمتثل لأمر الشرع، قلت له أنت من «دور» أولادي، هل جئت لتفهمني أمر الدين وما هو الشرع؟! إن أنت إلا تلميذ تلاميذي، ولن أعطيك شيئا ولن أذهب معك فافعل ما بدالك .. كانت الصلاة قد فرغت وتجمع حولنا بشر كثيرون وتحلقوا بنا وهم يترقبون معركة قادمة، فقد كانت المرة الأولى التي يعترضهم أحد وهم يمتلكون سلطات بلا حدود، وتحول الأمر إلى تحدي وشعر الشاب أنه انهزم أمام الناس التي تعمل له ألف حساب، وخشى أن يفقد سلطته، فأجاب ببرود مصطنع سوف تأتي معي بالقوة، وقال لصاحبه استدع الشرطة من السيارة لتأخذه، فقلت له لن تأخذني لا أنت ولا شرطتك الا جثة هامدة واراد أن يضع يديه ناحيتي فنطرتها وقلت له لو مددت يدك ناحيتي فسوف أقطعها لك.

فوجىء الشاب ولم يكن يتوقع من غريب غلبان مثلي أن يواجهه بهذه القوة، وكانت وجوه الناس الفرحة تدعوني الى تحديه حتى أنتصر لهم في مواقف مشابهة مروا بها من قبل كان أغلب الواقفين من الأجانب - غير السعوديين - وقد شعروا لأول مرة بالنصر وأنا آخذ لهم حقهم، وكان أقصى ما أتوقعه أن يقوموا باستبعادي من بلادهم باعتباري كافر رفضت الإنصياع الى قوانينهم الجائرة، تقدم مني أحد الشيوخ المصريين وقال لي يا دكتور أذهب معهم بدلا من البهدلة فلن يتركوك وأنت صيد سهل وغنيمة في يدهم وهناك في مقرهم سوف تلتقي بشيوخهم الكبار وسيتفهمون مركزك ويراعونك بدلا من الشاب الذي يجهلك .. وأخذني بنفسه الى السيارة وأركبني في المكان المفضل بعد أن حاول الشاب أن أركب في الخلف فقلت له لا .. هذا للصوص والحرامية، أما أنا فأستاذ جئت لأعلمكم، ومعنى هذا أنكم لا تحسنون اختيار أساتذتكم الذين يأتون الى جامعاتكم، قال لي في شبه تهديد يريد أن يجرني الى الخطأ، هذه سيارة خادم الحرمين الشريفين - الملك - وترفض أن تركبها ؟! قلت له اركب أنت من

الخلف فهذا مكان أمثالك، أما خادم الحرمين الشريفين سوف يغضب غضبا شديدا اذا علم أنك أهنت ضيوفه!! لا عبته في نفس المركز، فخاف وسكت عني، ولكنه طوال الطريق أخذ يهدد ويتوعد، أما الصديق السعودي الشيعي فلم أسمع صوته، لقد أهانوه وضربوه ولم يرد بكلمة واحدة، مساكين هؤلاء الشيعة أذلاء في بلدهم، تماما كحال الأقليات المسيحية في بعض البلدان الإسلامية.

وقفت السيارة أمام المقر الرئيسي واستقبلني شيخ كبير السن، أحسن لقائي واعتذر لي بعد أن أفهمته أن هذا الذي يحدث ليس من الإسلام، قلت له ان القرآن خاطب رسول الله محمد قائلا له «ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك» قال القرآن كذلك لمحمد «وجادلهم بالتي هي أحسن» وابنكم هذا أساء الأدب وضرب الناس وآذاهم وروعهم، هل هذا من الإسلام، لماذا لم يسألني بالحسنى: لماذا لم تصل يا أخي المسلم فأرد عليه: لأنني لا أستطيع الوضوء لمرض عارض ألمّ بي وهو يفسد الوضوء وحين يزول سوف أتوضا وأصلي ..

قال لي نحن لدينا الظاهر ؟! قلت له أتحب أن أخشاه ولا أخاف الله ؟! كان من الممكن أن أذهب الى الصلاة بدون وضوء فأكون قد ارتكبت اثما عظيما وذلك حتى لا أتعرض لهذا الموقف، لقد فضلت أن أواجه الشاب بدلا من أن أخطىء في حق الله.. أتراني مخطئا معه؟! كما أنه أساء اليّ وهو لا يعلم من أنا؟! والإسلام يقول أنزلوا الناس منازلها .. أي ضعوهم في درجاتهم ومكاناتهم التي وهبها الله لهم .. كانت حجتي قوية مما جعل الشيوخ تأتي لتستمع الى الحوار الذي انتهى باعتذارهم جميعا وطلبوا مني أن نقدم بعض المحاضرات تبرعا لوجه الله من أجل توعية جماعاتهم «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» فاعتذرت بأنني أرفض هذه الفكرة لأننا نكرّس الاهتمام بالظواهر العيانية

على حساب المشاعر والقلب. أي صلاة هذه التي تأتي خوفا من عبيد الله ؟! أي صلاة هذه التي تؤدى مثل قضاء الحاجة؟! لقد فقدت جوهرها، ولكنهم في السعودية - لا يبحثون عن الجوهر - انه ملك لله - ويهتمون بالشكل .. دين شكلاني عجيب!! هذا هو المجتمع الإسلامي..

في السعودية ظلمة وظلام وحزن وبكاء لأن الانسان هناك يستعبد أخاه الإنسان إن كل «العقد» تظهر لدى السعودي، في تصرفاته تجاه الأجنبي، مسلما كان أم مسيحيا - لا فرق - الكل في السعودية صاروا عمالا لخدمة أسيادهم السعوديين، حتى الطبيب والمهندس والمحاسب كنت أرى السعودي يعاملهم كخدمه. وهذا شيء ومعاملة بعض الجنسيات الأخرى المغلوبة على أمرها شيء أخر، مثل الهندي والفلبيني والباكستاني، فهم أشبه بالعبيد، يسمي السعودي الذي يعمل لديه «عمى» «وسيدي» الذي يملك حياته ورزقه دون الله. يأتي هؤلاء المساكين من بلاد تعاني القحط والبؤس فيرضخون لأوامر السعوديين مهما كانت مجحفة. وتجد السعودي يسير في الشوارع وخلفه اثنان من الخدم لا يفعلون شيئا سوى أن ذلك من باب الوجاهة والأبهة، أن يسير السعودي وعن يمينه وشماله خدم!!

حين يصل العامل الى أرض السعودية يأخذ منه سيده السعودي جواز سفره لأنه هو «الكفيل» له، أي السيد والعامل هو العبد الذي لا يصبح حرا في أرض المملكة يعيش بعضهم حياة بؤس وشقاء داخل أكواخ من الصفيح الذي يكاد يشتعل تحت أشعة الشمس التي تصل حرارتها هناك الى معدلات تفوق دول العالم!! ما يجعل أجسادهم «مشوية» مشوهة مليئة بالحروق والندوب. و«السيد» السعودي لا يعطي الأجر لخادمه ولكنه يأكل عرقه في كثير من الأحيان ويأخذ حقه بدعوى أنه يوفر لهم أجرتهم حتى لا يسيئوا صرفها!! لم تأخذهم شفقة بهم أو رحمة،

ولم يتصوروا أبدا أن هؤلاء بشرا مثلهم، خلقهم الله وربما يفضلهم عليهم .. أين حقوق الانسان وحريات الانسان ؟!

كل هذه الأشياء جعلتني أمقتهم وأكشف عن زيف وبهتان الإسلام وضلال الإيمان المزعوم. لم يعطني هذ الشعب أية انطباعات طيبة تجعلني أقتنع أن هؤلاء البشر اخرجوا رسول المسلمين من بين صفوفهم، والصحابة والتابعين من تربتهم - ولم تقنعني الأرض أنها شريفة مقدسة بل كانت مليئة بالشياطين التي تسكنها وهناك من أحاديث النبي محمد ما يؤكد ذلك، أن إبليس وبطانته يسكنون صحراء السعودية لم أشعر بأمان أو سلام أو محبة، لم أر وجوها باشة مستبشرة حدثنا عنها القرآن تحت عنوان صفات المؤمنين، لم أر علامات الحب والتسامح والكرم والأخلاق الفاضلة، بل رأيت أسوأ أيام حياتي مع أناس يملؤهم العجب والتيه والكبر والاختيال، وكأن الله رفع عنهم التكليف والالتزام بأفضل الصفات، فهم أبناء الله، فالكعبة قبلة المسلمين في أرضهم والمقدسات التي يتطلع إليها المسلمون من كل بقاع العالم موجودة عندهم، ورسولهم نشأ وعاش ودفن بينهم، هم أفضل خلق الله إذن وعلى كل شعوب الأرض أن تسعى اليهم وتخدمهم. فالسلطة الدينية للعالم الإسلامي مقاليدها في بلدهم والنفط أعطاهم سلطة أخرى زادتهم تكبرا واستخفافا بالآخر.

حتى في داخل الحرم، الكعبة، عقدهم تحكمهم، تشاجرت مع أحد العساكر الذي رأى أنني «أجنبي» وهذا المكان الذي اخترته بجوار بابا الكعبة مكان جيد من حق مواطن سعودي !! ولم أسكت عنه كلمته كذلك «بقرف» قلت له هذا بيت الله، ليس بيتا للسعوديين، عملك أن تخدمني لا أن تختار الأماكن لأهل بلدك .. حتى الكعبة تريدون تدنيسها؟! والسعودي لا يعظّم هذه الأماكن الا لأنها مصدر رزق خيالي للبسطاء ورقيقي الحال، ربما تفوق دخل النفط الذي يذهب الى جيوب الأسرة الحاكمة وطبقة الأمراء.

لم يتغير السعوديون ولكن الله استخدمهم، فهم صورة من الإسلام، انغلاقه، أكاذيبه، وأخلاق وسلوك بعيد تماما عن فكرة أي دين يدعو إلى مجتمع مثالي، متحضّر، حتى لو اعتبرنا الإسلام ليس مجرد ديانة جاءت من عند الله، بل هي مذهب إصلاحي ودعوة الى مجتمع مثالي، لا تجد من يتصف بصفات ألح الإسلام عليها وكررها كثيرا ودعا اليها وهي التسامح والعفو والكرم والنجدة والسلام وحسن استقبال الغرباء واغاثة الملهوف ومساعدة المحتاجين وحب بني الانسان لأنهم خلق الله. كل هذه الصفات أتى السعوديون بعكسها تماما، سامحهم الله، لم أتصور أن يكون السبب في عزوفي عن عبادتهم، وانصرافي عن إلههم الذي لم يستطع أن يؤدبهم أو يهذب طبائعهم. ولم أجد كذلك النور الذي جئت من أجله باحثا عنه في الكعبة وفي مسجد رسول الإسلام.

كان قلبي قد رفض أن يصدق أن الإله موجود هنا!! لقد ناديته فلم يسمعني، ولا يمكن أن يرد الله طلب سائل مهما كانت ذنوبه، لم أهرب من الميدان سريعا، بل استمرت المواجهة مع النفس ثلاثة أعوام كاملة، أراود نفسي، أكبتها، أمضغ الحيرة والتساؤلات المريبة التي تضعف الإيمان لكن القلب رفض كل ذلك!!

كان القلب يجهز نفسه لحبيب آخر، صادق، لإله حقيقي حين شق صوتي السماوات، سمعني وجاء اليّ، لم يتأخر، لكنه أضناني وعذبني وصهرني في نيران الجوى والعشق حتى أذيع كلمته ويتمجد اسمه، سار في رحلة طويلة للمعاناة والمعرفة حتى يكون هو آخر الرحلة نهاية المطاف. إله حقيقي يسمى يسوع المسيح .. له المجد ..

لكن ذلك لم يأت فورا. بل بعد نوع آخر من المعاناة ..

عدت من السعودية لأواجه نفسي من جديد، بنفس السؤال الذي خرجت به من مصر .. أين الطريق ؟!

الفصل الرابع

الاسلام .. إله من عجوة ..

«مرحلة الشك في الاسلام»

كان البدوي قبل الإسلام يصنع إلها من عجوة «البلح المعجون» يصحبه معه في رحلاته عبر البراري والقفار ليحرسه من الجن والشياطين وقطّاع الطريق، ولكنه كان يجوع أحيانا فيأكله!! ..

وجاء الإسلام فلم تتغير عادات البدوي القديم الذي ورثناه تحت جلودنا: فنحن حين تضطرنا الظروف نمضغه، ونأكله ثم نستعيده مرة أخرى بعد زوال الظروف، وهكذا دواليك، فجأة ظهر الزي الإسلامي للمرأة المسلمة «الجلباب» في أوائل الثمانينات. فأين كان من قبل؟! لا أحد يدري، فجأة تذكر الأخوان المسلمون وجماعات التشدد أن هناك نص معطل في القرآن يجب العمل به وهو قتال غير المسلمين أو يدفعوا الجزية عن يد وهم صاغرون، وفجأة بدأ المصريون - بالذات - يهتمون بالعمرة - زيارة الكعبة وأداء طقوسها وزيارة قبر الرسول، أين كانت هذه العبادات ولماذا ظهرت فجأة وحتما سوف تذهب مرة أخرى وتختفي. تماما كما كان يفعل العربي القديم، يأكل إلهه إذا جاع، ويصنعه ويعبده إذا خاف ولم يأمن الطريق حسب ظروفه!!

يتحدثون اليوم عن انتشار الإسلام على حساب المسيحية، وقد سمعت هذا الحوار في مصر وفي أمريكا، ويقول بعضهم أن الاعصار المدمر قادم، وهؤلاء الناس في أيديهم أدوات الشر ووسائل القوة، وسوف يأتي الوقت الذي ينكل فيه بالمسيحية كما كان الحال أيام الرومان! الإسلام ينتشر نعم، ولكن في أمريكا فقط، وينتشر في أمريكا لأننا هنا في بلد «الموضة» والإسلام يمثل

«آخر صيحة» الآن ولكن هل شيوع الباطل يستطيع آن يقنع أحدا أن هذا هو الحق، أبدا، مستحيل أن الخطر ليس في الإسلام ولكن في ضعف الايمان لدى المسيحيين. قابلت السيدة جوان أمريكية أعلنت اسلامها منذ شهرين فقط وجاءت إليّ تسألني عن الإسلام والقرآن، قابلتني في منزل أختي، تكلمت معها عن السبب الذي حملها على تغيير دينها أجابتني أنها لم تكن تذهب إلى الكنيسة ولم تجد من يشجعها على التدين، أدركت المشكلة حين قالت أن الإسلام لا يتركك منذ بدء خلقتك وأنت جنين حتى شيخوختك، حتى مراسم الموت والدفن أخبر بها الإسلام، أما المسيحية فأنت تجتهد وتركن على حريتك، وذاتك، قلت لها هل درست المسيحية قبل تركها؟ أجابت بالنفي، قلت لها لماذا لم تدرسي أولا دينك قبل الدخول إلى دين جديد، إنني أخشى أن تضطري إلى تغيير الدين مرات كثيرة وتصبحين مثل العربي القديم اياه الذي يأكل إلهه إذا جاع!!

الدين الإسلامي دين «شكلاني» يركز على الظواهر، هو يريدك نظيفا تتوضأ طاهرا تستحم وتغتسل ولكنه لا يركز على «الداخل» يترك أمر قلبك لله، يقول إن الله أدرى بالسرائر - القلوب - وبذلك لا يقترب من المشاعر أو الأحاسيس، انه يرهقك بالعبادة والصلوات، الصيام، الحج وما فيه من معاناة ومجهود، فهذه «الدوخة» لا تدع لك مجالا للتساؤل أو التأمل أو الشك، هو يلعب معك لعبة مادية، يستلم جسدك ويترك الروح لضميرك.

قلت لمحدثتي الأمريكية - التي أسلمت - وجهة نظري في تعليل هذه الظاهرة - انتشار الإسلام في أمريكا بالذات - شارحا وجهة نظري كالآتي:

إننا في أمريكا قمة الحضارة والرقي والحرية التي بحث عنها الانسان طويلا وحارب من أجلها وقدم تضحيات كثيرة طوال

العقود الماضية، ها هو الآن يأخذ حريته كاملة، نحن نعيش أكمل صورة للحرية ظهرت في العالم على مر التاريخ، هذه حقيقة ولكن البعض قد ضاق بهذه الحرية، بهذا المطلق، بمسئولية الفرد وتحققه الكامل، لم يرض الانسان بكل هذا الانجاز، وراح يبحث عن قيد جديد يضع نفسه فيه، الدين المسيحي ليس قيدا لأنه يترك لك الحرية في أن تصلي، وأن تذهب إلى الكنيسة أولا تذهب، وأن تقرأ في الانجيل وأنت تتعبد، أنت حر في حب المسيح، في الوقت الذي يروقك أنت، ولكن في الإسلام يقدم للانسان هذه القيود التي يكبله بها فإذا أردت - كمسلم - أن تمتنع عن الذهاب إلى المساجد فان التحذير والتكفير ينتظرانك، يقول الرسول محمد «إذا رأيتم الرجل يذهب إلى المسجد فاشهدوا له» وإذا امتنع المسلم عن صلاة الجمعة ثلاث مرات فيعد من الكافرين ولا تقبل دعوته!! الانسان اليوم يريد تسليم نفسه لقوى غيبية غير منظورة ثم يعلن استسلامه لها ويتركها تنظم حياته وتضع له جدولا منظما دقيقا.

هناك الصلوات الخمسة المعروفة بأوقاتها، ففي شهر ذي الحجة عليك الحج وفي شهر رمضان عليك الصيام. الانسان الأمريكي خاصة يشتاق إلى لون من الأسر، لقد ضاق ذرعا بالحرية وهرب من مسئوليته أمام الرب فهو يود أن يعود إلى السجن، لا يريد أن يرهق نفسه في التفكير أو في الروحانيات، والمسيحية دين روحاني تتطلب عواطف صادقة وقلب مضيء بالنور كي نقبل نحو الرب.

أما الإسلام فهو يجعلك في سباق مع الآخرين، إعمل حتى تحصل على درجة أعلى، لا يتركك حرا بل يربطك بقيد: أن تعمل طوال اليوم، ينظم لك كذلك كيف تنام وكيف تصحو وطريقة الأكل وكيف تقضي حاجتك مع زوجتك!! كل هذا يريح الانسان المتمرد الغير سوى فيبحث عن القيد ويذهب إليه ولا يعود يفكر أو يواجه الله.

أيضا وضع المسجد في الإسلام كبيت مفتوح طوال اليوم وأحيانا في المناسبات طوال الليل، كان الطلاب أيام الامتحانات يذهبون إلى المذاكرة فيه ويظل مضيئا عامرا بالحركة فيشعرك أنك في حمى الله. وصلوات الجماعة الخمسة طوال اليوم تربط المجتمع وتقوي الروابط الاجتماعية ويتفاعل الفرد داخل المجتمع ويصبح له دور يرضي غروره.

أما الكنيسة فهي مكان للصلاة في وقت معلوم يوم الأحد ثم تغلق باقي الأسبوع في أحسن الأحوال. كان محمد ذكيا في مشروعه فلم يترك شيئا للظروف حتى لا يفلت المسلم من تحت قبضته إن وجود بيت لله مفتوح دائما في وجه الذين يطلبونه أمر بالغ الضرورة في هذا العصر المجنون، عصر المادة والتكالب على الملذات. إن الناس لم تعد قوية الإيمان حتى تبحث عن الله بذاتها، هي تحتاج إلى من يقدم لها الله، تحتاج إلى كلمة الرب تأتيها جاهزة لا يبذل فيها الانسان مجهودا. وهكذا ترى أن الإسلام ينظم الوقت ولا يجعلك تائها وبيته مفتوح دائما. أما المسيحية فهي تتركك حرا فالله موجود في كل وقت وفي كل مكان لمن يطرق بابه «اقرعوا يفتح لكم، من يسأل يأخذ، ومن يطلب يجد، ومن يقرع يفتح له».

أهل الإسلام يجيدون الجدل والنقاش ويستخدمون البلاغة ويذوقون كلامهم بالصور البيانية والتشبيهات البلاغية ويصبح «التذويق» بهذا الشكل نوعا من التزييف والتزوير والتضليل لأنهم يصطادون العامة والبسطاء ويعبثون بعقولهم بحلو الحديث وجمال اللغة وصورها الأخاذة. إن النور المسيحي لا يهب نفسه عبثا، ان للرب أبناء مختارين يجمعهم إلى حظيرته لأنهم خرافه الضالة، أما أولئك الذين يرتكنون على عقولهم وعلى فلسفاتهم وعلمهم فإن هذا العلم كثيرا ما يضللهم ويحجب نور وبهاء الرب عنهم.

إذا أمعنا النظر إلى الإسلام نجده عبارة عن مشروع نظري طيب، ولكنه فشل في التطبيق وأرجو أن أكون مخلصا في بحثي الذي لا شك سوف يصدم الكثيرين من المسلمين وأنني أنا نفسي صدمت أولا، ولكني أتجاوز ذلك إلى تقديم البراهين على ما أقول حتى يتم الله أمرا كان مفعولا.

صورة الله في الإسلام كانت سر عذابي وشقائي، فهو إله جبار غاضب مطلوب من المسلمين أن يجلسوا بحضرته فزعين خائفين حزانى، يقول القرآن «ولا تفرح إن الله لا يحب الفرحين». وهو قاس يتحدّى البشر المخلوقين من الطين يقول «ولا تمشي في الأرض مرحا انك لن تخرق الأرض أو تبلغ الجبال طولا ..» وهو ماكر «ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين» وعلى كثرة صفات الله التسع والتسعين اسما - أسماء الله الحسنى - فلا يوجد بينها اسم واحد يدلل على الحب والمحبة، فكيف يستريح الانسان لإله كهذا ؟! لا يحب الفرح، يذكرك بالموت دائما وأنك واقع - لا محالة - تحت قبضته - فهو المذل والخافض والمنتقم وانظر كذلك إلى هذا التهديد المرعب «ولو شئنا لأتينا كلّ نفس هداها، ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين..» السجدة ١٢. فقد كان في استطاعة الله أن يهدي الناس جميعا ولكنه لا يريد !! لأنه إله محب للانتقام والقتل وشهيته مفتوحة دائما أن يملأ جهنم من الجان والناس !! الله في الإسلام يبغضك مهما تفعل، يروي أبو بكر الصديق خليفة المسلمين وصاحب رسول الله وجاء ذكره في القرآن، يقول: «لو أن احدى قدمي في الجنة والأخرى خارجها، لا آمن مكر الله» انظر إلى ايمان أبي بكر وقد قال عنه الرسول: لو وضع ايمان أبو بكر في كفة وايمان الأمة في كفة أخرى لرجح ايمان أبي بكر .. وأبو بكر - مع كل هذا الايمان الذي فوق ايمان الأمة - لا يرجو الخير من الله ويخاف من مكره!! ولقد جربت بنفسي هذه القسوة، كنت أحتاجه وأناديه وأبكي بدموع صادقة ولم يسمعني ولم أجد استجابة ما، عندما صرخت أستنجده أطلب منه النصرة لم يسأل عني !!

أما محمد رسول المسلمين، فهو من أخطر الشخصيات التي ظهرت في التاريخ، كنت أحبه ولكني اكتشفت أنه خدعني وضحك عليّ ولم يكن صادقا وخدع أبي من قبلي ومات أبي على الضلال، ان بيني وبينه ثأرا لن أتركه يوم القيامة أمام الرب، فقد ضلّل أهلي وعشيرتي وأمتي وملايين الملايين كي ينجز مشروعه الجهنمي!! تربى محمد في بيت جده عبد المطلب الذي رفض عبادة الأصنام وكان على ملة ابراهيم وقيل أنه كان يتأله. واذا كان القرآن نفسه يذكر الكتب التي أرسلها الله تعالى إلى الأرض وهي التوراه والانجيل والزبور فأين ملة ابراهيم ان لم تكن هي التوراه أو الانجيل «العربي» الذي اشتهر في ذلك الوقت ولا بد أن محمد قد تأثر بعبادة جده .. الذي كان أيضا يتحنث في غار حراء ويصوم شهر رمضان كله وكثير من الأخبار تحدثنا عن صلة جده عبد المطلب باليهود والنصارى، يقول العباس .. قال عبد المطلب: قدمنا اليمن في رحلة الشتاء فنزلنا على حبر من اليهود يقرأ الزبور .. «السيرة الحلبية» حـ١/٤٨ ويورد السيوطي «وبينا عبد المطلب يوما في الحجر، وعنده أسقف يحادثه» السيرة لابن هشام ١/٤٣. ولا بد أن كتّاب السيرة قد أهملوا الأخبار الكثيرة جدا التي تؤكد علاقة عبد المطلب جد النبي ومعلمه الأول - باليهود والنصارى وتأثره بهما. وبعد موت عبد المطلب فإن عمه أبو طالب يكفله، وقد تربى في بيته مع أولاده وكان يحبه حبا شديدا لا يحبه لأحد من ولده، لا ينام إلا جنبه.

ويركز المسلمون على أمية محمد، مع أن الأمية قد تعني غير ذلك، فالأمي هو من ليس له كتاب منزل، فاليهود أبناء اسحاق «كتابيون» والعرب أولاد اسماعيل «أميون» وإذن فالأمية لا تعني عدم معرفة القراءة والكتابة، لكن الإسلام يركز على نفي تعليم محمد، وانه لم يعرف القراءة أو الكتابة ولا بد أن ذلك دليل واه على أنه لم يتأثر بقراءات التوراه والانجيل، مع أنه تأثر بشدة كما سنرى والمرجح أن عمه أبو طالب الذي كان يحبه حبا جما والذي

رباه في بيته كان يهتم بتعليم أولاده ومنهم «على» أبن عمه الذي قال عنه محد «على مدينة العلم وأنا بابها» ولأن التاريخ الإسلامي قد تعرض للتزوير والتزييف من الفرق المتناحرة التي سرعان ما تفرغت لقتال بعضها حتى صدق قول نزار قباني شاعر العرب الذي فضحهم «فتاريخنا كله محنة ٠٠ وأيامنا كلها كربلاء ٠٠»

كان لخديجة الزوجة الأولى لمحمد وعمها القس ورقة من نوفل تأثير كبير عليه، فقد كان محمد يستشيرها في أمر الوحي، ويؤكد ذلك احترام محمد للقس ورقة فقد قال عنه (رأيت ورقة في الجنة وعليه ثياب الحرير) ثم حذّر المسلمين (لا تسبوا ورقة فاني رأيت له جنة وجنتين، لأنه آمن بي وصدقني).

لا أريد لكتابي أن يتحول إلى بحث علمي عن الإسلام وبيان مصادر القرآن ذاته وذلك هو كتابي القادم لكني فقط أكتب تجربتي المريرة مع الإسلام واكتشافي المذهل والعجيب أن أحدا من المسلمين اذا قرأ هذا لأول وهلة فلن يصدق وسوف يرفض الاستمرار في القراءة لكنني أصلي من أجله وأدعوه أن يقرأ بهدوء دون انفعال ويترك التعصب الأعمى لخيره ولخير أسرته.

وأدعو القارئ المسلم خصوصا إلى النظر بعين الفحص والمراجعة لقضية شائكة في القرآن، بالطبع الفكر الإسلامي بسطها وسطحها حتى لا نعطي للموضوع هذه الأهمية، أعني قضية الاحتجاج بالقرآن واثبات معجزته أنه من عند الله ودعوته إلى العرب أهل البلاغة والفصاحة إلى تحديه يقول القرآن «قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا» وقال أيضا يتحداهم «وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله أن كنتم صادقين» بقره ٢٣. أسأل بصدق أين نتائج هذا التحدي، أيمكن أن نتصور العرب أرباب الفصاحة

قد خسروا المعركة بمثل هذه الكلمات الساذجة السطحية ؟! . لماذا لم تصلنا الأصداء الحقيقية لهذه المواجهة بأمانة حتى تكون دليلا للأجيال وتحيا مدى الأزمان تثبت صحة إعجاز القرآن، هل يظن ساذج أن يقول العرب أمثال هذه الكلمات في محاكاة القرآن حتى يكسبوا المواجهة مع القرآن، لقد أكد محمد أن معجزته هي القرآن، فهل تصدر عن أرباب البلاغة والبيان أصحاب الشعر الجاهلي العبقري الذي ظهر قبل الإسلام، مثل هذه الكلمات التافهة هل يمكن أن تتصور مثل هذه الكلمات:

يا ضفدع يا بنت الضفدعين .. نقي كما تنقين
نصفك في الماء ونصفك في الطين ..
وهذه صورة أخرى: أنا أعطيناك الوحواح، فصلي لربك وارتاح

لقد حول دعاة الإسلام المواجهة إلى شيء مضحك فحذفوا كلَّ أصدائها واحتفظوا ببعض الكلمات الساذجة التي ألفوها هم بالطبع، زيادة في البلاهة واظهار عظمة القرآن..

القرآن يكون عظيما برفعة وسخونة المعركة، فأين المعارضات الصريحة والصادقة التي صدرت في مواجهة القرآن ؟! لقد زوروا وزيفوا الحقائق وداسوها وأخفوها حتى لا تظهر الحقيقة. هل نطمئن بعد ذلك إلى القرآن ذاته والمسلمون لم يكونوا أمناء معي ولم يحترموا عقلي وفكري وتحكموا في التاريخ يكتبونه كما يحلو لهم.

كيف أثق في القرآن إذن، لو كان من عند الله، ولو كانت معجزته صادقة لما أخفى القرآن والمسلمون محاولات شعراء وحكماء العرب لمحاكاة القرآن، يقول أحد المؤرخين أن الله صرف كبار الشعراء والكتاب عن محاكاة القرآن ؟! هل تصدق هذا ؟! ان الله منعني من تحدي القرآن ولماذا لم يمنعني أن أقول فيه ما أرى من صدق ؟!

عليّ إذن أن أثق في هذه الروايات التي تقول أن عبد الله بن سلام وكعب الأحبار قد عمدا إلى ادخال أخبار التوراه في القرآن الذي سلمه لهما على بن أبي طالب وحكيا من عندهما أشياء عجيبة غريبة مثل هذه الآية «وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب، كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم، فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون» بقره ١١٣٠ وتصدى عمر بن الخطاب لبعض آيات أسقطت عمدا مثل آيات المتعة، وقال اني لأعلم أن أحدا قال إن المتعة ليست في كتاب الله، بل كنا نقرأ آية المتعة ولكنها سقطت، فلا جزى الله من أسقطها خيرا. وعليّ كذلك أن أصدق ان مسيلمة الكذاب والأسود العنسى وطليحة من خويلد الأسدى وغيرهم كانوا قد صنعوا كتبا تشبه القرآن وقال أحدهم «الكندي» أشهد أني قرأت مصحفا لمسيلمة لو ظهر للمسلمين لردهم عن دينهم إلا أنه لم يتهيأ لهؤلاء أنصار مثلما تهيأ لمحمد». لقد أهمل مؤرخوا الإسلام ما تعارض مع الإسلام ولم يكونوا أمناء في نقل الحقائق تعصبا، مما دفعهم إلى التزوير والتزييف وبالتالي أنت لا يمكن أن تطمئن على شيء مثير للشبهات.

ان الذي زوج محمد من السيدة خديجة بنت الحسب والنسب اثنان هما أبو طالب وورقة بن نوفل ويورد قصة الزواج صاحب السيرة ابن هشام يقول «أرسلت خديجة إلى أعمامها فحضروا وأرسل محمد إلى أعمامه فحضروا هم أيضا، واجتمع الناس وخطب ولي أمره أبو طالب وقال .. (وابن أخي له في خديجة بنت خويلد رغبة، ولها فيه مثل ذلك) وخطب القس ورقه ولي أمر خديجة وقال: (الحمد لله الذي جعلنا كما ذكرت، وفضلنا على ما عددّت، فنحن سادة العرب وقادتها وأنتم أهل ذلك كله، لا ينكر العرب فضلكم، فاشهدوا عليّ معشر قريش، إني قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله» هذا الزواج الذي قام به قس

مسيحي من خديجة التي اختارت محمد بنفسها وسعت إليه، ألا يعد ذلك زواجا مسيحيا ؟! بدليل أن محمدا الذي تزوج من خمسة عشر امرأة لم يتزوج على خديجة طوال حياتها. أين الحقيقة هنا ؟!

لا تسعفنا كتب التاريخ وأخبار العرب - الذين يولعون بالحكايات - فقد محوا هذه الصفحات محوا وطمسوا معالمها، وهل تعلم أن أم أيمن - مرضعة النبي محمد - كانت مسيحية، واسمها بركة، من الحبشة، وكان يقول عنها «من سره أن يتزوج امرأة من أهل الجنة فليتزوج أم أيمن». ثم من الذي أعلن لمحمد أنه نبي ؟! أليس القس ورقة بن نوفل معلمه والسيدة خديجة زوجته، فعندما جاء الوحي لمحمد واعتراه الذهول والخوف والاضطرابات، ذهب إلى خديجة، فقص عليها ما رأى وما سمع فقالت له: - كأنها امتلكت وحي السماء وعرفت تعاليمها - قالت: أبشر يا ابن عمي واثبت فوالذي نفس خديجة بيده أني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة» قُم قامت وجمعت عليها ثيابها وانطلقت إلى ورقة تخبره ما حدث لزوجها، فأعلن ورقة وكأنه يوحي إليه هو الآخر: قدوس .. قدوس والذي نفس ورقة بيده، لئن كنت صدقتني يا خديجة، لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى، وأنه لنبي هذه الأمة، فقولي له يثبت» السيرة جـ ١ ص ٢٢١ وما بعدها.

يجب علينا أن نتأمل بعض الروايات التي كنا نقرأها سريعا ولا تستوقفنا.. ففي صحيح البخاري جـ ١ ص ٣٨ جاء هذا القول العجيب: بموت القس ورقه فتر الوحي» .. وهو قول شديد الخطورة، فمن أين للقس هذا العلم وأسرار السماء ؟! ثم بأي صفة أعلن لمحمد أنه نبي ؟! إلا اذا كان هذا المشروع مشتركا بينهما ومعهما خديجة، يقول ابن هشام صاحب السيرة «هي التي آمنت به وصدقت بما جاءه من الله وآذرته على أمره، وكانت أول

من آمن به وصدقت مما جاء عنه فخفف الله بذلك عن نبيه، لا يسمع شيئا مما يكرهه من رد عليه وتكذيب له، فيحزنه ذلك الا فرج الله عنه بها اذا رجع اليها، تثبته وتخفف عنه وتنصرنه وتهون عليه أمر الناس ..» السيرة جـ١ ص ٢٢٤. على الانسان المحايد الذي يحترم عقله أن يجمع هذه الروايات جنبا إلى جنب ليخلص إلى نتيجة واحدة عن هذا المشروع الديني الذي زلزل أركان جزيرة العرب وكون أمبراطورية ضخمة في وقت من الأوقات قامت بالسيف وحده. بعد هذا اعتاد المسلمون هذه القيود ولم يجرؤ أحد أن يتوقف ليسأل لماذا ؟! وأين؟ وكيف؟ لقد شغلت الدنيا المسلمون وهم يقومون بمجرد طقوس تخلو من الروح ولا يدعون مجالا إلى الشك يتسرب إلى أعماقهم، فقد أحكموا إغلاق العقل والقلب بكل أنواع المتاريس، وعاشوا في أغلال الضلال مطمئنين لا يقوون على التفكير أو التمرد.

محمد والنبوة

أين علامات النبوة وشروط الرسالة في محمد نبي الإسلام ؟ في يشوع ٥:١٣-١٥ جاء ما يلي:

«رأى يشوع ملاكا في زي فارس، فلم يعرفه يشوع، فسأله: أمن أصحابنا أنت أم من أعدائنا، فقال له الملاك أنا رئيس جيوش الرب والآن أقبلت، فخر يشوع بوجهه على الأرض ساجدا وقال: بماذا يأمر السيد عبده؟» فقال رئيس جيوش الرب: اخلع نعليك من قدميك لأن المكان الذي أنت فيه كان مقدس، ففعل يشوع ذلك» .. فأين الملائكة في حروب وغزوات محمد التي خاضها بنفسه قبل موته ؟! لقد جاء في الكتاب المقدس كيف أن جيش فرعون ٤٠٠ ألف حصان تعقب موسى وبني اسرائيل فما كان من «جبرائيل» ملاك الرب وقد أصبح في صورة رجل ركب رمكة شهباء عليه ثياب خضر، فلما توسط البحر قحم جبرائيل في اثر جنود فرعون قائلا: قدم خير .. فتبعته الخيل التي كان عليها فرعون وأصحابه فنجا بنو اسرائيل وغرق فرعون وأصحابه.

هذه علامات النبوة ومحمد لم يأت بشيء من هذا بل أنه في احدى غزواته - غزوة أحد أصيب بكسر رباعيته السفلى اليمنى وشق شفته وثلم وجنته وجبهته وكاد يقتل بسيف ابن قميئه الليثي على شقه الأيمن لولا أن وقاه طلحة بن عبد الله التيمى بيده وقطعت أصبع طلحة.

لماذا لم تدافع عنه الملائكة وتقاتل إلى جانبه ..؟!

ان التاريخ لم يتحدث عن الغزوات الفاشلة التي خرج فيها محمد نذكر واحدة منها حيث حاول محمد ثلاث مرات يريد عير قريش فلم ينل منها شيئا، ورجع صفر اليدين في ودان ثم في بواط ثم في ينبع. وأين الأنبياء - ان كان نبيا حقا - من شن الغارات والخروج لإصابة الطرق والتعرض لأمتعة الناس. لقد ظل في غزواته هكذا يخرج إليهم حتى يجد القوم الذين خرج في طلبهم في ضعف فيأخذ تجارتهم ويقتل منهم من أمكنه قتله من رجالهم، واذا وجدهم في منعة وقوة انحاز عنهم وولى هاربا إلى أن مات.

كانت مغازيه بنفسه ٢٦ غزوة غير السرايا التي كانت تخرج في الليل، والسوارى التي تخرج نهارا والبعوث قاتل منها تسع غزوات والباقية كان يبعث فيها أصحابه. لماذا لم يدع محمد ربه ليرد يد طلحة إلى ما كانت عليه حين قطع أصبعه كما فعل المسيح مع الجندي الذي قطعت أذنه وأين كانت الملائكة من معونته ووقايته ؟!

شروط النبوة إذن، أن ينبيء النبي بالغيب ومحمد لم يخبرنا بشيء جديد في القرآن ولم يخبر بأي أمر قبل وقوعه، والشرط الثاني لم يتوفر كذلك في محمد حيث لم يجر معجزات بأحداث، بل انه يقول «وما منعنا أن نرسل بالآيات الا أن كذب بها الأولون»

الاسراء ٥٩ والمعنى: نحن يا محمد - المتحدث هو الله طبعا - لن نعطيك آيات ومعجزات فقد أعطينا الأنبياء من قبلك فكذبوا بآياتنا ولولا ذلك لأعطيناك الآيات والمعجزات. وأنا لا أصدق هذا، فاذا كان الله لم يعطه المعجزات وتلك هي معجزته ؟! فلماذا لم ينزل جيوشه تقاتل معه كما فعل مع أنبيائه ؟!

أما هذه الغزوات والانتصارات على أمة الفرس والرومان وانشاء امبراطورية اسلامية ضخمة فكم من الأمم نشأت وصارت قوية الشكيمة شديدة المنعة، كما أن الفرس كانوا مجوسا عبدوا النار فاستحقوا الهزيمة. العرب المسلمون قد غلبوا الأمم ليس بروح الدين الجديد لأنه الحق، ولكن بروح التعصب والحمية والحماس لأنها المرة الأولى في التاريخ التي يصبحون فيها أمة ذات شأن.

بين محمد والمسيح

لم يحتفل النص القرآني بأحد مثلما تحدث عن يسوع المسيح، لقد وضعه في مكانة أكبر من كل الأنبياء، فهو «عيسى بن مريم» وخلق من تراب ولكن بولادة معجزية جاء إلى الحياة، وهو مؤيد من الروح القدس وهو نبي ورسول قد خلق من قبل الرسل، أتاه الله البينات وصنع العجائب، تكلم في المهد صبيا، وخلق من الطين طيرا وشفى الأكمة والأبرص وأخرج الموتى من القبور، ومكانة أمه السيدة مريم العذراء مكانة طيبة وهي المرأة الوحيدة التي جاء ذكرها في القرآن، حيث يقول «ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين، ذرية بعضها من بعض، إذ قالت امرأة عمران رب اني نذرت لك ما في بطني» آل عمران ٣٣. واعترف القرآن بالانجيل والتوراه وما جاء فيهما من نور هداية للبشر، وهناك توجيه صريح إلى محمد في قرآنه يقول له «فإن كنت في شك مما أنزلنا اليك فاسئل الذين يقرءون الكتاب قبلك» يونس ٩٤.

تؤكد هذه الآيات وغيرها أن الكتاب المقدس كان موجودا في زمن مجيء القرآن وأنه يعترف بصحته ويثق به وبقرائه من اليهود والنصارى والا لما جاز له أن يطلب من محمد أو أمته أو كل سامع أن يسألهم ليثبت الايمان في قلوبهم ويزول عنهم الشك بشهادة هؤلاء الثقات وكتابهم الموجود الذي لم يتغير ولم يحرّف.
اذا صدق المسلمون القرآن فيجب أن يعرفوا بألوهية المسيح وصلبه لأن المسيح الذي تكلم عنه القرآن لا يمكن - وحاشا لله أن يكذب أو يضلل، فهو والآب والروح القدس واحد. إذا كنا نصدق مكانة عيسى - المسيح - في القرآن فلماذا نأخذ جزءا من الحق وندع الباقي ؟! لأنه لا دين جديد ولا اسلام بعد أن قال المسيح وهو على خشبة الصلب «قد أُكمل». ولم تعد هناك حاجة إلى أنبياء أو رسل أو دين آخر بعد أن محا الرب خطايانا وغسلنا منها بدمه الذكي وأعلن انتصاره على الشيطان وخلاص البشرية.

أين هذا من صورة محمد، ولن أتكلم عن حياته الخاصة وذنوبه التي أشار اليه القرآن نفسه لكني أتكلم عن موضوع بالغ الخطورة وهو النساء .. لقد كان له خمس عشرة امرأة وأمتان (من الاماء) - أي الجارية - من أين لنبي الوقت والجهد والطاقة لهذا العدد الهائل من النساء، هل من علامات نبوته ما أنبأنا به عن نفسه أنه جعل في ظهره من القوة على النكاح مقدار قوة أربعين رجلا؟ كان اهتمامه منصبًا على امرأة حسنة يصيبها أو قوم يغير عليهم ويسفك دماءهم ويأخذ أموالهم وينكح نساءهم ويشهد هو على نفسه أنه حبب اليه (الطيب والنساء). لماذا اختص الله رسوله بكل هذا العدد من النساء ثم حدد العدد مع المسلمين بأربع زوجات فقط وهل هذا عدل ؟! نعم القرآن يعد المسلمين بنكاح من يشاءون من نساء حيث يقول «وانكحوا ما طاب لكم من نساء مثنى وثلاث ورباع وما ملكت ايمانكم» أي الجوارى والاماء فليس المطلوب من المسلم أن يتقيد بعدد من الجوارى والامام والمحظيات اللائي يشتريهن أو يوهبن له.

وفي القرآن هذه القصة العجيبة، لقد اشتهى محمد امرأة زيد هي «زينب بنت جحش» ولندع القرآن يتكلم وعلينا نحن أن نسكت «وإذ تقول – للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه: أمسك عليك زوجك، واتق الله، وتخفى في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه، فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج من أزواج أو عليائهم اذا قضوا منهن وطرا، وكان أمر الله مفعولا. فما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له، سنة الله في الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدرا مقدورا» الأحزاب ٣٧-٣٩. لقد طلقها زيد الذي كان ابن محمد بالتبني، وتزوجها محمد الذي أعجب بجمالها. والقصة لا تحتاج إلى تعليق ولكن تعليق عائشة إحدى زوجات محمد له مغزاه حيث قالت له «ما أظن أن الهك يتبع هواك».

حقيقة القرآن

إن القرآن يمتلىء بآيات الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد والمواضع التي رأيت فيها تشابها شديدا لا تحتاج إلى أدلة، فهي واضحة تماما ويمكن أن أذكر بعضا منها كمجرد دليل فقط مثلما جاء بالقرآن «الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله، ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم» و«ياأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاد الناس» البقرة ٢٦٢. وفي الانجل «متى صنعت صدقة فلا تبوق بها قدامك كما يفعل المراءون في المجامع وفي الشوارع كي يمجدهم الناس» متى ٦:٢. وأيضا «إياكم أن تعملوا بركم بمرأى من الناس لكي ينظروا إليكم فلا يكون لكم أجر عند أبيكم» متى ٦:١١. وعن يوم القيامة أخذ القرآن تصويراته من الإنجيل حيث يقول فيه «تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها» مأخوذ من الانجيل «ويل للحبالى والمرضعات» متى ٢٤-١٩ وقول القرآن «ويجعل الولدان شيبا» مأخوذ من الإنجيل «يرى على رؤوس

الشبان شعر أبيض» وقول القرآن «يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه، لكل امرء منهم يومئذ شأن يغنيه» مأخوذة من الانجيل عن هذا اليوم الشديد الصعوبة على البشر» يسلم الأخ أخاه إلى الموت والأب ابنه ويثور الأبناء على والديهم فيقتلونهم، متى ١٠-٢١.

وانني أؤكد من جديد للقارئ العزيز أنني لا أكتب بحثا علميا فذلك له موضع آخر لكنني أنقل تجربتي فقط وملاحظاتي السريعة. تأمل قارىء العزيز القرآن تجده كلاما جميلا رائعا لكن لم يأت بجديد فليخبرني متخصص - وأنا أقبل التحدي - بالجديد والمؤثر أكثر مما جاء في الكتاب المقدس، سيقول لي أحدهم، لقد جاء القرآن بالتوحيد، وحدانية الله، لا شريك له، لكن هذا هو الشرك الذي نصبه الإسلام لمتبعيه إذ بعد بهم عن الحق وأراد أن يبعدهم عن وحدانية الله بأقانيمها الثلاثة (الآب - الابن - الروح القدس) واستغل عن سوء قصد هذه المسألة التي تبدو عويصة، صعبة على أذهان غير المؤمنين، ولكن الكتاب المقدس لا يذكر أن هناك ثلاثة آلهة فالله واحد، ولكن بأقانيمه الثلاثة.

لا يمكنك أن تجد شخصية متميزة للقرآن كالانجيل والتوارة، فالآيات متناقضة أحيانا، حاول علماء الدين تفسيرها بالناسخ والمنسوخ وكأن الله لا يعلم الغيب. يأتي بشيء ثم ينكره ويطلب محوه ليثبت بدلا منه أمرا آخر. القرآن «خلطة» عجيبة من مفردات وكلمات وحكايات الكتاب المقدس تم تعريبها - ليس ترجمتها ولكن اخراجها مرة أخرى بطريقة عربية - بدل وغيّر في الأسماء والأماكن ثم لم يقدم شيئا جديدا يذكر ولم يعلمنا أو ينبئنا بأي غيب .. هو نص لغوي جميل، ناصع العبارة رائع البيان ولكنه لم يقدم الدين الذي وعد به كما ينبغي. إن صنعة البشر ظاهرة فيه لأن صنعة الله لا يمكن أن تتناقض أو تتضارب.

ان لغة الحديث النبوي تؤكد ان محمدا كان يمتلك علما وثقافة وقدرة على القراءة والكتابة، وبعض الأحاديث القدسية حين أستعيدها الآن أجدها أيضا تتطابق مع معاني الكتاب المقدس. والأحاديث القدسية التي هي بلفظ محمد أما المعنى فهو من عند الله - من السماء - وانظر إلى هذا الحديث الذي يقول: «يقول الله عزّ وجلّ: عبدي مرضت ولم تعدني، غبت ولم تسأل عني، جعت ولم تطعمني الخ. فيرد العبد وكيف يا ربي أعودك وأنت رب العزة، فيقول أما مرض عبدي فلان ولم تزره فإن كنت زرته لوجدتني عنده، أما غاب عبدي فلان لو سألت عنه لوجدتني معه أسجل اسمك بين الذين سألوا عنه».. أليس هذا المعنى هو نفسه ما جاء في انجيل متى ٢٥:٣٥-٤٦ ومنه هذه الآيات «لأني جعت فأطعمتموني عطشت فسقيتموني، غريبا فأيتموني، عريانا فكسويتموني، مريضا فرويتموني، محبوسا فأتيتم إليّ، فيجيبه الأبرار حينئذ قائلين: يا رب، متى رأيناك جائعا فأطعمناك، أو عطشانا فسقيناك، ومتى رأيناك غريبا فاويناك أو عريانا فكسوناك ومتى رأيناك مريضا أو محبوسا فأتينا إليك، فيجيب الملك ويقول لهم: الحق أقول لكم بما أنكم فعلتموه بأحد أخوتي هؤلاء الأصاغر فبيّ فعلتم ..».

وفي القرآن نفسه يمكننا أن نلمح الأقانيم الثلاثة للرب، أنظر إلى الآية التي يبدأ بها المسلمون عملهم ويقدسونها تقديسا هائلا، انها «بسم الله الرحمن الرحيم» ان الله هو الآب، أليس كذلك وأن الرحمن هو الابن الذي جاء إلى الأرض وقدم دمه الثمين للبشرية لتخليصها من الخطية والموت فهو رحمة لنا، انه يسوع المسيح. ثم أنظر إلى «الرحيم» انها تعني عطية الله إلى الانسان هو الروح القدس وانظر إلى معنى الرحيم mercy أما الرحمن ومنها الرحمة فهي Compassion. ان الرحمن ليست بمعنى الرحيم فلكل لفظ معنى وخصوصية.

ومثال آخر. يكثر في القرآن مخاطبة الله بلفظ مختلف هو «اللهم» وهي كلمة تتكون من (الله + هم). فما هي حكاية «هم»؟! ان الضمير «هم» يشير إلى جماعة في النحو العربي وقد توقف النحاة العرب أمام الكلمة ووجدوا لها مخرجا: انها طريقة لنداء الله، فان كانت «هم» للنداء - كما يقولون - فلماذا لا يصح أن تقول: محمدهم - فريدهم - أحمدهم، وإذن ليست «هم» حرف نداء لأن حروف النداء معروفة في العربية، لقد تسربت مثل هذه الاستعمالات التي تؤكد أن الله واحد. إنه ذو أقانيم ثلاثة - إلى الفكر الإسلامي ولكنهم قاوموا ذلك حتى يكون هناك مبررا لوجود دين جديد يبشرون به.

وهناك دليل أكبر من الأدلة السابقة يثبت أن الله الواحد في الجوهر ثلاثة أقانيم: يقول القرآن «فأرسلنا اليها روحنا، فتمثل لها بشرا سويا..» و«اذ قالت الملائكة يا مريم ان الله اصطفاك على نساء العالمين» وقوله «اذ قالت الملائكة: يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين».

ان الله في هذه الآيات عبارة عن ثلاثة أقانيم

١- **الله الآب** العائد على الضمير «فأرسلنا اليها»
٢- **الروح القدس** الذي جاء التعبير عنه بالنص: روحنا
٣- **المسيح** الذي نراه في كلمة يبشرك بكلمة منه

والعهد القديم -الذي يعترف القرآن به - نرى الأقانيم الثلاثة، فقد أفصح داود وصرح بالثلاثة أقانيم حيث قال الله وكلمته وبنسمة أي روحه. وفي وصف أشعياء النبي أن الله عز وجل تراءى له والملائكة حافون به مقدسون له قائلين: قدوس قدوس قدوس رب الجنود، مجده ملء كل الأرض» أشعياء ٦: ١-٢

فتقديس الملائكة ثلاث مرات واقتصارهم على ذلك بلا زيادة ولا نقصان سر لتقديسهم الأقانيم الثلاثة اليها واحدا وربا واحدا وهذا شأنهم منذ خلقوا إلى أبد الآبدين.

وهذا هو الدليل نفسه يذيعه القرآن غير منتبه إلى اقراره بالأقانيم الثلاثة، يقول: «يأهل الكتاب لا تغلوا في دينكم، ولا تقولوا على الله الا الحق، انما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه. فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم، انما الله إله واحد» الله تبارك وتعالى اذن ذو كلمة وروح والقرآن يعترف أن المسيح كلمة الله تجسد وصار انسانا. لكن الأمر الواضح أن هناك «لبسا» في القرآن فلم يقل أحد من المسيحيين ولا من اليهود أن الله ثلاثة آلهة ولكنه اله واحد. اله واحد وثلاثة أقانيم، كامل بكلمته، وروحه، واحد في ثالوث وثالوث في واحد. وليس هو ثالث ثلاثة كما يقع القرآن في هذا الخطأ. «الرب الهك تسجد واياه وحده تعبد» متى ٤-١٠.

هناك معجزة في القرآن تستوقفنا هي حديث الاسراء والمعراج، والمعجزات تتم لتبرهن على صدق الرسالة وحتى يصدق المتشككون بنبوة محمد، أما أن تكون «المعجزة» في الخفاء وسرا فهنا ينتفي التصديق، لأن ما يقصه محمد حدث بينه وبين الله فقط - كما يزعم - فلماذا لم يخبرنا بأدلة قاطعة، أو يشهد معجزته جماعة من المؤمنين الثقات وبذلك تحقق المعجزة الهدف منها. يحكي القرآن عن هذه المعجزة فيقول - «سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا ..» وبعد أن صلى محمد إماما بالأنبياء جميعا في المسجد الأقصى، عرج الى السماء على ظهر جبريل الذي صنع من نفسه «براقا» طائر، كبير، عجيب، وقد رأى في كل سماء ما شاء خياله أن يخبره به ولكن الأدهى والأمر قصة فرض الصلوات على أمة الإسلام، إذ بعد أن شرف محمد بلقاء الله وجد

مكتوبا على عرش الرحمن «لا اله إلا الله محمد رسول الله» قدم محمد التحية الى الله الذي فرض الصلاة على أمته كتكريم وذكرى لهذا اللقاء الشريف. وقد كتب الله على المسلمين خمسين صلاة في اليوم ولكن موسى قابل محمدا في احدى السماوات وأخبره بالقصة فقال له موسى عد يا محمد الى ربك لعله يخفف هذه الصلوات لأن أمتك أمة آخر الزمان وهي ضعيفة أن تقوم بكل هذه الصلوات، فعاد محمد الى عرش الله فخففها ربنا الى خمس وأربعين صلاة ولكن موسى قال له ان هذا كثير أيضا يا محمد، ثم صعد الى الله مستحييا وسأله التخفيف وهكذا صعودا وهبوطا حتى أصبح عدد الصلوات خمسة فقط بتدخل من موسى ولكن بخمسين أجرا كما كانت أولا.

هل يعقل أحد هذه القصة؟ أن يكون الله تاجرا تبتاع منه سلعة وتساومه في سعرها ويتم تخفيض الثمن من خمسين الى خمسة؟! هل يريد محمد مباركة اليهود لدعوته فراح يغاذلهم بقصة موسى؟!

الإسلام إذن - في رأينا - دعوة اصلاحية لقويم مجتمع متصدع فاسد بتعاليم انجيلية في البر والاحسان ومحاربة الأثرياء. يقول أحد المستشرقين الدارسين للاسلام هو «بندلي جوزى»: ان القول بأن الإسلام فكرة دينية محضة وأن ظهوره وتغلبه على وثنية العرب وانتشاره السريع بين أكثر أمم الشرق وفتوحات الخلفاء الراشدين وبني أمية الواسعة ترجع الى الحماسة الدينية أو التعصب الديني. يعد اليوم قولا جزافا بعيدا عما أثبتته الأبحاث التاريخية والاقتصادية كأبحاث البروفيسور فيلهوزن والأمير كايتاني ولامنس ونولدكه وعضو أكاديمية بطرسبرج بارتولد وغيرهم، فقد أصبح اليوم من المقرر أن الإسلام كغيره من الأديان الكبيرة ليس فقط فكرة دينية بل مسألة اقتصادية واجتماعية أيضا، أو بالأحرى هو مسألة اقتصادية واجتماعية أكثر منه فكرة

دينية ٠٠ جوهر الإسلام ليس دينيا بقدر ما هو اقتصادي اجتماعي٠٠»٠

والإسلام كذلك دين «شكلاني» يهتم بالشكل والمظهر ويهمل الجوهر كما أسلفنا القول تحضرني قصة رمزية في التراث الإسلامي، أن أحد المسلمين كان يمر بالسوق فوجد شق ثمرة «نصف بلحة» فصرخ في السوق وتجمع حوله البشر، من ضاع منه شيء فليخبرني، فلما تكاثر عليه البشر ولم يستطع أحدهم أن يدلي بأوصاف هذا الشيء المفقود أخبرهم قائلا من فقد منكم نصف ثمرة فليخبرني بصفاتها حتى يثبت لي أنه صاحبها فأعطيها له، وكان عمر بن الخطاب ثاني الخلفاء يتفقد أحوال الرعية ووجد الزحام شديدا حول الرجل والجلبة والضوضاء التي أحدثها فلما عرف القصة ضربه بمزبة كانت بيديه قائلا له: أتريد أن تثبت الأمانة في نفسك، لقد شغلت المسلمين؟ ٠٠ كلها أو ألقها على جانب الطريق ولا تعد لمثلها أبدا٠

هذه القصة تطلعنا على الجانب الآخر «لشكلية الإسلام» فهو دين يبحث عن المظاهر والظواهر والأشياء المباشرة، أما أعماق الانسان ومشاعره فيتركها لضمير صاحبها٠ هو دين طقسي، عباداته تشبه الديانة اليهودية قديما وانظر الى التشابه بينهما في الاختتان والغسل والوضوء وتقاليد دفن الموتى والجناية والنجاسة والحج وزيارة الأماكن المقدسة، ثم تأمل حب المظاهر في تلك المظاهرات الصاخبة كل يوم جمعة حيث تتحول الشوارع والطرقات إلى زوايا للصلاة، إظهارا للتقوى، وقد نبه الانجيل إلى ذلك وتنبأ بهذه الظواهر الخادعة وحذّر منها المؤمنين٠ «ومتى صليت، فلا تكن كالمرائين، فانهم يحبون أن يصلوا قائمين في المجامع، وفي زوايا الشوارع، لكي يظهروا للناس ٠٠» متى ٦–٥٠

ولنتأمل العبادات في الإسلام بشيء من الفحص والتأمل، تأتي الصلاة في بداية الاهتمام وقد أولاها الإسلام مرتبة عظيمة ولكنها تتحول إلى «كابوس» وينص القرآن «وانها لكبيرة الا على الذين آمنوا ..» لأنها مفروضة بأوقات معلومة مسبقا وعليك في كل صلاة أن تكون جاهزا للقاء الله.

والصلاة بهذه الكيفية كانت معروفة قبل الإسلام، وقبلة الصلاة نفسها هي بيت المقدس كما كانت في النصرانية، ثم فجأة لما شعر محمد بالحرج غيّر قبلته إلى الكعبة بأمر من الله - كما زعم - ولكن الكعبة كانت موجودة قبلا فلماذا لم تكن قبلتهم من البداية؟! الموضوع يدعو إلى الريبة .. أليس كذلك؟!..

والحج بكل تفصيلاته يشبه إلى حد بعيد (هيكل أورشليم) الذي هو نسخة من الهيكل الحقيقي الموجود في السماء، وكذلك البيت المعمور - الكعبة - هي صورة لبيت الله في السماء، وقد أمروا أن يطوفوا بالبيت المعمور. والحجر الأسود الذي كان أبيض ناصع البياض غيّره الله فصار أسود بمعصية العاصين، وفي رسالة كورنثوس ١٠: ٤ نجد «حجرا» كان أبيض يوضع في «جرن العماد» ويمثل المسيح بحسب ما جاء «هذه الصخرة هي المسيح» وجاء عن عمر بن الخطاب أنه قال وقد وقف على الركن «الحجر الأسود» والمقام قائلا: والله لأعلم أنكما حجران لا تنفعان ولا تضران ولكني رأيت رسول الله يقبلكما فأنا أقبلكما..». لقد كان العرب في الجاهلية قبل الإسلام يحجون لهذه الكعبة، ويطوفون حولها بتغيير واحد هو أن أصنامهم كانت تنتشر بجوار البيت، إذن هذه عبادة جاهلية، وقع محمد بني الإسلام اتفاقا مع العرب ألا يمس مشروع الحج باعتباره عملا تجاريا في المقام الأول على أن يتبعوه في دعوته ولا يخسر أحد الفريقين شيئا. وحتى رجم الشيطان كان معروفا في النصرانية ولم يأت محمد بجديد في موضوع الحج ابتداء من الحجر الأسود والطواف حتى «بئر

زمزم» وقد سألت أحد المسئولين السعوديين عن الماء الذي يأتي هل هو البئر القديم الذي تروي قصته السيدة هاجر وابنها اسماعيل بحثا عن الماء، وهل من المعقول أن تظل مياه هذه البئر حتى الآن، فأجابني: أي بئر يا أخي، لقد نضب ماؤها من زمن بعيد، والحكومة تضخ ماء من تحت الأرض لتوصله إلى مكان البئر وتوهم الجميع أن البئر ما يزال يضخ المياه!!.

شيء واحد جعلني أتشكك في موضوع الكعبة والحجر الأسود وبئر زمزم، عرض لي شخصيا لقد مررت بالتجربة ولم أجد شيئا: فأين بركة هذه الأماكن المباركة، فهل ذهب أحد إلى الكعبة بعلة أو حاجة وعاد مستجاب الدعوة، هل حققت هذه الأماكن بركاتها وعم فضلها على المؤمنين، هل جاء أعمى إليها فعاد منها معافى وهو يبصر!! هل جاءها أعرج ورجع منها سليما؟! لم أر شيئا من هذا البتة..؟!

البركات تحل في المواضع التي يعبد فيها الله حق العبادة، أماكن العبادة التي يشير إليها الكتاب المقدس ديار عامرة بالايمان حقا فليس من مكروب ولا ملهوف ولا محزون ولا مريض ولا مستغيث يسأله بايمان صحيح ونية صادقة وقلب سليم باسم المسيح القدوس الطاهر إلا فرج عنه همه وغمه وكربه.

الزكاة أيضا مأخوذة من المسيحية، وقد صنّفها الإسلام ووضع لها أنواعا ولكنها لا تخرج في نظامها العام عما عليه في المسيحية.

لم يكن الصيام شيئا جديدا، اذ هو سنة عامة في كل الأديان والمذاهب، ولكنه يشبه في أحكامه شرائع اليهود والنصارى، وقد جاء في التلمود بهذه الكيفية «ان أول نهار الصيام هو الوقت الذي يقدر المرء فيه أن يتبين الخيط الأزرق». وجاء القرآن «كلوا

واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر» ثم ان محمدا نفسه وجده عبد المطلب كانا ممن يتعبدان في غار حراء طوال شهر رمضان، يصومانه، ويتأملان ويمتنعان عن النساء ويعتزلان البشر .. ما الجديد اذن في هذا الدين؟

ولعلنا حين نتوقف عند المحرمات كلحم الخنزير مثلا لأنه نجس، فذلك في اليهودية. وفي الخمر يضطرب القرآن اضطرابا بالغا في أحكامه، فهي بحسب القرآن «رجس من عمل الشيطان» و«سبب اثم كبير» توقع الناس في العداوة والبغضاء، وقد جاء في انجيل متى: «أقول لكم لا أشرب بعد اليوم من عصير الكرمة هذا حتى يأتي يوم فيه أشربه معكم خمرة جديدة في ملكوت أبي» ولكن القرآن يأتي بعد ذلك ليعد المؤمنين بالخمرة في الجنة ويرى بعض المفسرين أنها تختلف عن خمر الدنيا، فهي لذة للشاربين. وقد عالج المفسرون اضطراب القرآن في تحريمها وقالوا لقد تدرج الشرع في التحريم رأفة بالناس!!

ويطول بنا المقام لو تتبعنا كل المؤثرات التي اجتلبها الإسلام من الأديان الأخرى والمعتقدات والحكايات والأساطير. وليس هدفنا أن نهاجم الإسلام ولكن الرب هداني أن أكشف الغطاء الرقيق الذي يمنع الرؤية النافذة، تماما كما قال القرآن «فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد» وبصري اليوم حديد كي أفتح عيون أهلي وأخوتي من المسلمين حتى يكتشفوا الخبيث من الطيب والرديء، من الحسن وما جال بخاطري أبدا أن أكون عدوا لأهلي ولكني أحاول أن أرفع الغشاوة من على أعينهم كي يبصروا الحقائق مجردة بلا تعصب أو تهور أو غضب.

الإسلام بناء متماسك من الخارج، فاذا أصبحت داخله فاما أن تصمت ولا تسأل وهذا حال الغالبية العظمى من المسلمين، وأما أن تفكر وتتمرد وتعرف الحقيقة، فتصبح مرتدا وجب قتلك! ليس

من حقك أن تبحث عن التناقض الموجود في القرآن والا فأنت كافر. يقول القرآن (قل يا أيها الكافرون .. لكم دينكم ولي دين) ويقول (ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن)، ثم يحث المسلمين على قتل الناس ضربا بالسيف وسبيا حتى يدخلوا في دين الله كرها وقهرا. فهل نأخذ بالقول الأول، أم الثاني، أم نأخذ بما سمي بالناسخ والمنسوخ؟! وما الحد الفاصل بين هذا وذاك وأيهما الناسخ وأيهما المنسوخ .. لا يقدر المسلم أن يقدم برهانا ساطعا على ما يزعم.

وليس من حقك أن تتوقف عند موضوع الحج الذي كان معروفا قبل الإسلام لتسأل عن الحكمة منه وسر تقبيل الحجر الأسود وهل هو من الجنة فعلا؟! وكيف يكون ذلك وهو موجود قبل الإسلام بمئات السنين، كان العرب يتباركون به.

ليس من حقك أن تمتنع عن الصلاة لأنك غير مهيأ لها فيجب عليك أن تكون دائما على أهبة الاستعداد للوقوف بين يدي الله حتى لو لم تكن تريد ذلك والا فأنت كافر!! فلتقف إذن دون مشاعر أو أحاسيس ذلك أفضل من ترك الصلاة، فمن تركها كأنه هدم الدين وتكون نهايتك الذهاب إلى الجنة والتمتع بالحور العين وعندها سوف يؤتي الرجال القدرة الهائلة على الجماع لفض أبكار السبعين حورية ثم تعود الحوريات مرة أخرى إلى بكارتها وهكذا .. رب الإسلام ترك الكون وانشغل باعادة غشاء البكارة للحوريات السبعين المخطيات لكل مسلم في الجنة!! وهل تنسى أنهار العسل واللبن والخمر، ولحم الطير وما يشتهون وفاكهة أبا (لم يعرف أحد من المفسرين معنى أبا) فهل هي طازجة أبدا. هي نعيم الدنيا ينتقل بك إلى الآخرة أيضا، انها بهذا الشكل حلم الجياع ورغبة المحرومين..

اذا مات المسلم وانتقل من عذاب الدنيا التي لم ير فيها يوما طيبا إلى عذاب القبر حتى موعد يوم القيامة، ألم وعذاب دائمين لا

ينج منها أحد إلا من أوتي القدرة والقوة على الرد على الملائكة الذين يسألونه عقب دفنه. ويوم القيامة حساب آخر، حيث يسير الجميع على الصراط وهو «أحدّ» من السكين، ذي كلبشات تنهش الأقدام. ولكن الله يثبت المؤمنين الطاهرين الواثقين وهم قلة نادرة، علينا أن نتذكر وعد الله للمسلمين كلكم واردها - أي النار - قالوا حتى أنت يا رسول الله، قال حتى أنا إلا أن تدركني رحمة الله. إذا كان رسول الإسلام غير واثق في الخلاص، فكيف بنا نحن !؟! ومهما كان ايمانك فعليك أن تقضي في جهنم شطرا معلوما من الوقت لكي تدفع ثمن ذنوبك وخطاياك بعدها تصبح جاهزا للدخول إلى الجنة.

ووضع المرأة في الإسلام يحتاج إلى كلام كثير وشرح طويل، فهي مثل السلعة أنظر ما جاء في «ذكر الطلاق ونكاح المرأة رجلا آخر وأن يذوق عسيلتها وتذوق عسيلته ثم مراجعة الرجل الأول بعد ذلك، وانظر إلى وضعها في الزواج «فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ومن الإماء - الجوارى - ما ملكت ايمانكم».

يخلو الإسلام من روح الحب والفرح والسعادة، فالقلوب دائما منكسرة والوجوه متكدرة مكتئبة، يجب عليك ألا تضحك لأنه جاء في الحديث «كثرة الضحك تميت القلب» ولا تسعد أو تهنأ بوقتك ولكن كل قليل يطل عليك حديث النبي محمد «أذكروا هادم اللذات» أي عزرائيل ملك الموت!! ومحمد يخبره الله في القرآن «انك ميت وانهم ميتون» والمسيح حي، في السماء، كما قال القرآن بنفسه» أيهما تختار؟!

انتشر الإسلام بالقتال، بحد السيف، بينما المسيحية بالحب والدعوة المباركة. قال محمد بني الإسلام مهددا «من لم يقر بنبوتي وأني رسول رب العالمين ضربته بالسيف وسلبت بيته

وسبيت ذريته» من غير حجة ولا برهان !! بينما المسيح سيد البشر ومحيي العالم يقول «تفضلوا على الناس جميعا وكونوا رحماء كي تشبهوا أباكم الذي في السموات فإنه يشرق شمسه على الأبرار والفجار ويمطر على الأخيار والأشرار» متى ٥ و٤٥. بينما يدعو الإسلام إلى الحزن والكآبة يقول الرب في المسيحية «افرحوا في الرب كل حين وأقول أيضا: افرحوا» فيلبي ٤-٤.

دين الإسلام يجعلك دائما مضطربا باحثا عن السكينة، متلهفا إلى الموت، رافضا الحياة عازفا عن نخرفها لأنها عبء وبها تزيد الذنوب، أما الحياة في المسيحية فهي عطية من الرب عليك الاستمتاع بها والفرح فيها والاطمئنان إلى الرب بعد أن تسلمه حياتك أنك ضمنت مكانا معه في السماء.

الرب في المسيحية صديق، وأب وصاحب وحبيب، لا يعرف علاقة العبودية القاهرة التي تربط بقسوة بين المسلم وإلهه. في المسيحية الله يبحث عنك، ويقول لك بمحبة «لا أتركك ولا أتخلى عنك أبدا» عبرانيين ٣-٤. وهو يطمئنك تماما ويطلب منك أن تعلن بفرح «الرب معيني فلن أخاف ماذا يصنع بي الانسان» وحتى جسدك ليس ملكك، أجسادنا أمانة لأنها جسد المسيح «جسدكم هو هيكل للروح القدس الساكن فيكم والذي هو من الله» اكو ٦-١٩. ما أروع أن تشعر أن جسدك ليس ملكك أنه ملك يسوع المسيح ومحافظتك عليه تشعرك بسمو الروح وعلو الهمة لأنك تشترك مع الله في الجسد وفي الدم الذي بذله لأجلك، أي حب هذا الذي يجعل الرب يتخلى عن ابنه لأجلك. أنت في المسيحية في أمان وحب دائمين. أما في الإسلام في حالة قلق وتوتر عظيمين، يقول حديث نبوي عن محمد نبي الإسلام «قلب المؤمن يتقلب في اليوم والليلة أربعين مرة وقلب الكافر يثبت على حالة واحدة» إذن أين الاطمئنان؟ هل يدعونا الإسلام إلى «قلب الكافر» الثابت الهادئ !! يجهد الإسلام أن يبقيك دائما «تحت الطلب»

ساخنا متوترا، قلقا، يصرخ فيك، حديث آخر «لن يدخل الجنة أحدكم بعمله، قالوا: حتى أنت يا رسول الله، قال حتى أنا الا أن تدركني رحمة الله»· ان محمد غير مطمئن ومتوتر ويطمع في رحمة الله فماذا أفعل أنا العبد كثير الخطايا ولست نبيا أو رسولا؟!

لم يقدم الإسلام شيئا يستحق أن أتمسك به وأتعامى عن النور القادم من الكتاب المقدس، لقد قاومت بلاغة القرآن وروعة أسلوبه باعتباري دارس له أسير للثقافة العربية التقليدية واستطعت أن أجد فاصلا بين الجمال التصويري في القرآن والحقيقة الغائبة والإله الجميل الأروع الذي أبحث عنه·

لم يكن هذا الإله موجودا في الإسلام!!

* * * * *

كان عليّ أن أبحث وأقترب ثم أبتعد، أصل إلى اليقين ثم أعود القهقرى، لا أقوى على المواجهة ·· كانت أخطر أيام أعيشها في حياتي حين عدت من السعودية لأستقر في مصر عامين كاملين قبل أن يحدث اللقاء العجيب، كانت هذه الفترة «فرنا حراريا» يعيد صياغتي، صهري، تقليبي، كنت أبحث باكيا، هل أسير على الطريق الصحيح أم أبتعد عن الحق؟! من يعطيني اليقين، من يهبني الطمأنينة؟!

هل العودة إلى العمل وتكثيف الوقت وشغله بكل الألوان والأشكال حل مناسب لا يدع لي مجالا للتفكير أو التأمل؟! لقد أعجبتني فكرة الثور الذي يستخدمونه في ادارة الساقية، انهم يضعون على عينيه عصابة تمنعه من الرؤية حتى يظن أنه لا يسير في الطريق نفسه ويدور في الحلقة المفرغة· وضعت على عيني

«عصابة العمل» لأتعامى عن الطريق، لم أخلعها حتى عند نومي .. كانت أقسى ساعات يومي تلك التي أضع فيها رأسي على الوسادة، كانت العصابة تسقط غصبا عني من على عيني فأرى وأحس وأشعر وأواجه السؤال: إلى أين المصير؟! إلى متى تهرب من نفسك؟! أين الله يا محمد؟! كانت مكانتي قد زادت ومركزي العلمي والوظيفي أضحي أكبر من ذي قبل، ورغم المسئوليات والنجاحات التي أحرزتها في عملي وكانت محط إعجاب وتقدير كبار المسئولين الا أنني كنت فاقدا للروح، والأمن أشعر أن الحرب تدور في داخلي، والعدو هناك ينتظرني وراء الباب، وحين كنت أقف أمام المرآة لأضع رابطة العنق أو أسوي شعري، وأرى وجهي أمامي، أكاد أصرخ من هذا الذي أضحى بلا دين، بلا إله، بلا أمل، بلا غد. الدين يقدم حلولا شافية لمئات من المشاكل والقضايا، انه يسكّن القلب والضمير، وتشعر أن الدنيا ترضى عنك، تثق فيك. الدين يعطيك مشروعية الحياة ويمنحك أسرارا كثيرة تفك ألغازها .. كل هذا كان يعوزني في هذه الفترة، لقد أصبحت لأول مرة تقريبا في حياتي بلا إله .. وآه على هذا العالم الذي يضحى بلا إله، يصبح الانسان المتجبر هو ذلك الإله، يأخذ وظيفته ويحكم باسمه، وتكون المآسي والمظالم لأنه لا يوجد انسان يصلح أن يكون إلها عادلا قادرا .. أن تعيش الحياة المجردة تأكل وتشرب وتعمل وتنجح، فأنت تعيش مثل البهائم ..

كيف يمكن أن تطمئن نفسك لعالم بلا قائد، يوجه الكون ويوجهك يقود الآخرين ويقودك، يهدي الحائرين وأنت معهم!! وهذه الفترة كثرت الألسنة التي انطلقت في اثرى تتعقب أخباري من هنا وهناك. وتحيك القصص والروايات وتنسج الخيالات عن حياتي، ..... مجتمع مريض ما أن تعطيه ظهرك حتى يطعنك في كل جزء من جسمك، جاء في الأثر أن ابراهيم أبو الأنبياء سأل الله أن يقطع ألسنة الناس عنه، فأجابه رب العزة إلا هذا يا ابراهيم، فهذا ما لا أصطفيه لنفسي .. ان الناس تتحدث حتى

عن الله وتخوض فيه كما لو كان بشرا بينهم. وفي الشرق - في بلادنا - حيث لا عمل ولا مشغلة تصبح أسرار الناس وتأليف الحواديت حولها عملا جيدا لهؤلاء. هم يبحثون عن أفضل طريقة للتغلب على الملل وشغل أوقات الفراغ - والحياة كلها لديهم وقت فراغ - وسيرة الناس والخوض في الأحاديث الكاذبة لون مفضل وطبق شهي على مائدة كل المصريين..

كنت أقول لنفسي، انه عقاب من رب تهمله وتحاول أن تبدله وتغيره.. ولكني كنت أطرد هذه الأفكار عني سريعا وأمضي في طريقي لا ألوي على شيء، لديّ ثقة في طهارتي. وفي مشروعية بحثي الصادق اللاهث الودود عن الله.

لقد رفضت عادات الدين، أن يتحول الدين المقدس والعبادة الطاهرة النقية أن تتحول لديّ إلى نوع من العادة الجوفاء البلهاء الخالية من الروح والحرارة. لم يجدِ العمل: أن أدور كثور الساقية في رحلة ارهاق يومية تقطع الأنفاس وتهد الحيل.. لم تجدِ الشهرة التي حققتها وصوري التي تملأ الجرائد في أن تهبني السعادة أو ما يشبه التخدير الموضعي الذي ينعش القلب وينسيني إلى حين قضيتي مع الله، ومع نفسي!! كنت أهرب من نفسي، لكي أواجهها أحيانا وهي تنقض عليّ في غفلة مني، تمسك بتلابيبي تطلب مني ألا أكون جبانا وأهرب، أن أبحث، وأبحث وأحصل على اليقين الدائم والنعيم الأبدي. ولكن كيف؟!

كان الجو في مصر قد أصبح أكثر سوءا عن ذي قبل، ثلاثية الفساد - الحقد - الوصولية تمثل مذاهب بشرية للوجوه التي تراها وتتعامل معها، لم يكن سهلا أن تجد بريئا أو طيبا أو انسانا يختلف، كان عصرا عبّر عنه شاعر أحبه:

الزمان اختلف

فالبريء انتهى..

واللبيب اختفِ!!

لم يعد ينجيك الآن أن تقف في المنتصف!!

كان صعبا أن تجد دائرة «المنتصف» حتى تقف داخلها تحمي نفسك من غدر الزمان وثقل المواجهة وجهامة الواقع الخالي من الوسامة المليء بالعتامة والبغض والحقد كان صعبا على أمثال هذا النوع من حياة الحواة ومروضي الكلاب الشرسة، أولئك الذين يلعبون بالبيضة والحجر .. فشل في العثور على «المنتصف» الآمن السعيد الذي يجعلك تقول ولا تقول، تختلف وتتفق، يجعلك مائعا ماسخا لا موقف لك. لم أستطع أن أكون هذا، لا مع البشر فأخدعهم وأضللهم أو مع الله فأتوهمه وهو بعيد جدا عني، وقريب جدا مني، كان صراعا مزدوجا مع البشر أبحث عن دائرة «المنتصف» ولا أستطيع .. مع الله أحاول العثور على خلاصي.

كيف كانت هذه الفترة ؟!

لا أصدق أنها مرت عليّ دون أن أدفع حياتي ثمنا لها، كم من الليالي قمت من نومي صارخا، أين أنت يا أُللّه؟! لماذا لا تأتي اليّ ؟! أتعتبرني عبدا ضئيلا حقيرا لا يستحق منك الاهتمام ؟! لماذا لا تأتي اليّ وتأخذ بيدي ؟! كنت أحيانا أسهر ليلي كله أصلي في السرير، أبكي، أقول له لا بد أن يكون هناك إله لكن لماذا تخفي نفسك عني ؟! تعبت من البحث وأعياني السؤال الصامد دوما في وجهي، حتى لو أصبت بالعمى فهو أمامي دائما، مرسوم على الوجوه، مكتوب في السماء محفور على الأرض: أين أنت أيها الإله ؟!

كنت أختلس أحيانا اللحظات لأصلي سريعا دون تفكير عسى أن أصل إلى مبتغاي وكنت أقرأ القرآن بصوت عال حتى

يتحشرج صوتي فأكف عن الصراخ، لم تكن قراءة، كانت نوعا من الغضب أشعله في حروف القرآن كي أستفز الله ليضطر إلى اجابتي ..

كم من مرة كنت أسمع الآيات بأعلى صوت ممكن في «مسجّل» السيارة أو في البيت حتى يخرج القرآن «العفاريت» التي كانت تصم أذني وتمنعني من الإستغراق في سماع آيات الذكر الحكيم.

خشيت على نفسي، قررت النزول مرة أخرى إلى بحار اللذة أغترف منها زاهلا عن الدنيا رافضا عبثيتها التي تجلت لي، لا يوجد في الدنيا ثوابت ولا قواعد الكل باطل، الكل إلى زوال، هيا، إلى كل الملذات الممكنة، اغترف منها قبل الأوان غدا تصبح ترابا ولن تعود ثانية إلى الحياة فلماذا تفقدها مرتين ؟!

ثم أفيق فجأة، أدعو عاهرة إلى الطهر والايمان الذي أفتقده أو أغيب عن الوعي فأهذي بكلام منظم كسجع الكهان أنادي به الله الغائب الحاضر.

أفيق وأعلم أنني لن أقتل في داخلي النور الذي يضيء من وقت لآخر، يعلن عن نفسه، يكشف الله لي عن ذاته ولكن ببطء وتؤدة وتمهل يليق بتكبره علينا نحن البشر، لكنه نور وضوء ساطع بدأ يتسرب إلى نفسي، ورويدا رويدا بدأت أتتبع الصوت الهاتف في أعماقي .. أترك مصر واذهب إلى أمريكا هناك ستجد الحل ..

هل هذا معقول ؟! هل أنا أهذي ؟! هل أصابتني حمى البحث عن الله فأتلفت مخي ومحت ذاكرتي!!؟!

لقد تم أمر الله .. هيا إلى أمريكا !!

الفصل الخامس
أنا هو .. الإله

كان كل شيء تقريبا يدفعني دفعا الى ترك مصر والتوجه الى أمريكا.. فشلي في العثور على الله، خلق شرخا عميقا في قلبي، فتهاوى كل شيء، صداقات «المصلحة» انكشفت لي، العلاقات الهشة الفاترة التي تتأرجح يمنة ويسرة حسب الجو والطقس وتقلبات الزمن دهستها بقدمي، اخفاق في مشروع زواج آخر لم أجن منه سوى المزيد من الحسرة والضحايا والألم، سلّمت أمري تماما الى إله غفل عني أو تغافل، ومع أنني كنت دائما أضع أيات جميلة أحببتها تقول «والضحى والليل إذا سجى، ما ودعك ربك وما قلى» أي أن الله لن يتركك أبدا، ولكنه تركني وضحك عليّ، إن كل ألوان الغبن والظلم التي واجهتها في حياتي العاطفية والروحية، يبدو أنها مقصودة من السماء، حتى لم يعد لي أحد سواه.

كان الله ما يزال بعيدا بعيدا ولكن أشعر أنني سألقاه ذات مرة وسينتهي، كل شيء كل ألم. لم أتقن لعبة «المصالح» التي احترفها البشر في هذا الزمن، خاصة في مصر، ولم أفهم في لغة التوازنات والتكتلات، كنت ناجحا جدا في عملي ويوما ما سأنشر صوري ومقالاتي التي احتفلت بها كبرى الصحف العربية وأبرزت لي مكانا شبه أسبوعي، وأحدثت في بلدي نهضة ثقافية وحضارية بدعم من أكبر مسئولي الدولة ولكن ليس هذا هو كل شيء في الحياة، لم أجن من عملي شيئا لنفسي أو لأولادي وكنت أقول دائما للذين ينتقدوني «المستقبل بين الله» ذلك لم يمثل مشكلة على الإطلاق .. بل المشكلة الكبرى هي أين الله؟ لماذا أفتقد السعادة

والهدوء والسكينة ؟! لماذا رغم كل ألوان النجاح وأنواعه وشهرتي الواسعة لا أبدو سعيدا وأشعر أن شيئا جوهريا ينقصني، كان الأصدقاء والأعداء يحسدونني، يقولون لي أنك مقرر علينا نراك في التلفزيون كثيرا، ونقرأ لك في الصحف الكبرى والمجلات الشهيرة، وتجالس كبار المسئولين وتنعم بالقرب منهم. وأنت صاحب سلطة الآن، كانوا يقولون: الله أعطاه كل شيء المال والقوة والسلطة والشهرة، أنه أسعد انسان في الدنيا. كنت أخفي دمعتي عنهم، ان كل ما ذكروه هو «تراب» وأنا أيضا تراب، فكأنه تراب يتغطى ويتظاهر بالتراب !! لم يدركوا الا المظاهر الخادعة، كم حسدت سائقي، كنت أتركه في السيارة لمدة قصيرة وأعود فأجده نائما قرير العين، أوقظه وأتأمله وأسأله من أين لك هذا الاطمئنان ؟! كان لا يفهم سؤالي ويضحك قائلا (تحسدني على شوية نوم يا باشا). لا يعرف أن «شوية النوم» هذه تساوي عندي كل ما أنا فيه، قلت له مرة أتنازل لك عن مكاني وأخذ مكانك كسائق وأطلعني فقط على سر واحد: لماذا أنت سعيد؟! صار السؤال غريبا في بلدي - استنكر الرجل سؤالي ببراءة وأجابني هناك من يتمنى أن يكون ترابا تمشي سيادتك عليه، ما هذا ؟! صارت لغتي غريبة، الناس هناك لا تتوقف لتسأل أنها كالطاحونة تدور وتدور، لا يعنيهم شيء هل أنا الذي فقدت نعمة «التناحة» و«الطناش» أم هم الذين فقدوا نعمة السؤال ويعيشون على هامش الحياة بعيدا عن الحقيقة ؟! لست أدري !!

كنت أجهد نفسي أن أقتل الضوء الذي بدا لي على استحياء من بعيد، هناك ضوء شعاع، خيط من نور يتراءى لي أحيانا ثم أفقده تماما: هل هو مجرد سراب أجري خلفه ولا يوجد شيء ؟! لا لا يمكن. كان صوتا حنونا يناديني أنا هناك تعالى اليّ !! . وبمجرد أن تذكر «أمريكا» أمامي في أي حديث عابر كان قلبي يرفرف كالعصفور، لم أدر لماذا ؟! أصبحت أمريكا بالنسبة لي «أرض الموعد» لا أدري كيف تشكلت هذه الرؤية، مع أنني زرت

أمريكا من قبل كأستاذ زائر لمدة ستة أشهر ولم أكن مشدوها أو معجبا بها الى هذا الحد، لم أر فيها سوى حضارة عظيمة وحرية أعظم، لكنها كانت بالنسبة لي كأي «حضارة غربية» غريبة عنا ولها معتقدات تخالف عقائدنا .. الآن أستعد للحلم، السفر الى أمريكا والبحث عن المجهول ؟! ولم أفكر مرة أخرى في الأمر، أسرعت أنفذ ما تراءى لي كحلم وأمل، أحيانا أتصور أنني كنت مخدرا مسلوب الارادة أسير دون أن أعي ما الخطوة التالية، لكني ذهبت فجأة بعد ١٥ أغسطس الى رئيس الجامعة:

– أريد السفر الى أمريكا فورا، أختي مريضة وأحتاج الى رؤيتها (كانت أختي عندنا في مصر منذ عشرة أيام فقط)

– أفي هذا الوقت ؟! انك مسئول وعميد كلية ويحتاجك العمل لأن الدراسة بعد أسبوعين والاعداد لها يتطلب وجودك المكثف.

– لا لا أستطيع، أرجوك أعطني أسبوعا واحدا، ان نفسي مضطربة ولا أصلح لعمل شيء، دعني أذهب ولن أتأخر

– هذا مخالف للتعليمات، فأنت تعلم أن «العودة» الى الدراسة اقتربت وطلب أجازة للسفر من حقك ولكن كان ذلك في بداية الاجازة منذ شهرين .. أين كنت ؟!

– لا أدري ولكني أريد وأرجو بالحاح أن توافق

وافق رئيس الجامعة مضطرا وأشفق عليّ من رفض الموافقة لأن وجهي تغير فجأة وصوتي ارتفع ونسيت نفسي، وحفظا للود المتبادل طلب مني أن أكون على اتصال به من هناك. أرسلت موظفا من عندي وأخذ جواز سفري وجاء لي بالتأشيرة وتذكرة الطائرة بأسرع وقت ممكن، وجمعت ملابسي وكتبي وبعض

قصاصات الصحف التي كتبتها أنا أو كتبت عني وجئت بعدها بأيام قليلة ..

حين وصلت صباح اليوم التالي ذهبت الى منزل أختي في «إنديانا» للحظة الأولى التي خطت فيها قدمي أرض. أمريكا أدركت أنني لم آت زائرا جئت مقيما إلى الموت .. لا أدري لماذا جال بخاطري هذا الخاطر، شيء ما كان يشدني بحرارة أن أرقب هذه الحضارة وأقرأ وجوه البشر الذين يتعاملون باحترام وذوق وأدب، يحبون العمل جدا ويعشقون الحياة، يضحكون ويسعدون ويفرحون، يتعبون نعم ولكنهم يخلقون لأنفسهم الفرصة ويجدون الوقت ليأخذوا ثمن هذا التعب: سعادة ورضى وحب وأمل.

تأملت أمريكا واستوعبت الصورة المناقضة «السعودية» أين هذه من تلك ؟! ان هذه الحضارة العظيمة وهذه الروح المهذبة لا بد أن وراءها أساسا متينا وعميقا، انه «الدين»!! لا شيء يحفظ لهذه البلد مكانها ويجعل منها قوة عظمى وحيدة في العالم إلا الدين، نعم ليس كل البشر متدينين في أمريكا ولكن القلة البسيطة التي رأيتها هناك كان إيمان أحدهم يساوي أمة كاملة - كل شيء متاح الانحلال والإيمان، الخير، والشر ولكن أساس العلاقات، وضع المرأة، الأخلاق والمثل العليا، كل ذلك مبني على الأساس الأول على فكرة الدين التي لا تسمح بالتجاوزات وتنشر الحب والفضيلة وتدعو الى احترام الآخرين، وكانت المسافة شاسعة بين بلد المسلمين وقبلتهم، وبلد آخر يدين بالمسيحية، لم يظهر المسيح هنا ولم يعش في هذه الأرض مثلما في السعودية حيث عاش محمد وجاء برسالته - أيهما أولى بالولاء والانتماء، بعيدا عن الدين ولنفترض أن محمد ليس نبيا بل مصلحا اجتماعيا له رسالة اصلاحية .. أين أثرها ؟! ولماذا هذا التوحش وعدم احترام حرية الآخرين واهانة البشر لسبب واحد انهم ليسوا سعوديين!! لقد جذبني الى هنا حجم الحرية التي يتمتع بها المسلمون أيضا،

يهاجمون البلد الذي يعيشون فيه في خطبهم ومواعظهم ويأمرون الناس بالجهاد في سبيل الله. رأيت هنا «في أمريكا» التناغم الرائع بين تشكيلة مختلفة من البشر لكن لا فرق بين هذا وذاك!!

كان الطريق ما يزال أمامي طويلا، والإله حتى الآن - ما يزال مجهولا، وخطواتي هنا غامضة، وكم سألت نفسي هل أنا مجنون؟! لماذا أترك بلدي وأولادي ومنصبي الرفيع وشهرتي وآتي الى هنا كالمتصعلكين لا عمل لي، وأنا عالة على أختي «القاسية» وزوجها المسلم المتشدد. اعتزلتهم بالرغم من وجودي عندهم. وكنت أمضي وقتي كله في حديقة المنزل، أكتب أو أقرأ أو أسرح طويلا وأتأمل هذه الحياة محاولا فك رموزها ومعرفة ألغازها «هل تنكر وجود الاله؟! لا يمكن أن يكون هذا الكون الجميل والنظام البديع والسماوات السامقة والبحار والمحيطات والمخلوقات الشتى والجبال الشاهقة، ان كل هذا ينطق بوجود الله!! جسم الانسان ذلك «المصنع» الصغير بالغ التعقيد، هو ملايين عديدة من أجهزة الكمبيوتر!! مخ الانسان وما فيه من شعيرات بالغة الدقة والمناطق الدماغية ومسئولية كل جزء، معجزة الانسان نفسه تشير بجلاء إلى وجود خالق.

إذن الاله موجود لكن أين؟! لم أجده عند المسلمين، بعد ٤٨ سنة مسلما وجدتني أفتقده لكنني أختبرته بوضوح وضعته أمامي فهرب مني، عندها تأكد لي أنه وهم. إذن الاله الذي عنه أبحث لا يوجد الا عند المسيحيين!! لماذا ؟! لا أدري، مجرد نطقي باسمه يسوع المسيح أجدني مغتبطا قلبي يكاد يقفز لكنني أتساءل كيف يتم ذلك؟! ثم لا يتركني الشرير فيهمس في أذني أبعد كل هذا العمر تترك دينك الذي هو شرفك وعصبيتك الى المجهول؟! حتى لو كان الاسلام ليس حسنا فما يدريك أن إله المسيحيين سيعجبك هو الآخر؟! ان الذي عرفته أفضل من دين جديد لا تدري عواقبه.. ثم أين تذهب؟! في بلدك سيقتلونك بحجة الارتداد عن الاسلام

كما يقول لهم القرآن، وماذا سيقول أولادك؟! وكيف أمك ستكون؟! هل ستموت وستكون أنت السبب؟! وماذا سيقول تلاميذك الذين ينتشرون في كثير من الجامعات؟! .. أعقل يا رجل .. واذهب لشراء البيرة واشرب منها حتى تهرب من هذه المواجهة التي كادت تدمرني .. أنام قليلا وعندما يزول تأثير البيرة أصحو لتزداد حالتي تأزما، وأنا عاجز عن «الفعل»، فقط الأفكار تعبث بي، أصبح مثل الريشة في مهب الريح تقذفني هنا وهناك لا أستقر على حال، بين «الإقدام» الى طريق الأمل و«الأحجام» عن النور والخوف من النتائج، تمزقت أوصالي وتقطعت أنفاسي وعزفت عن الطعام والشراب كنت كمن يريد أن يقتل نفسه: أرى النور من بعيد وقدماي تغوصان في الوحل ولا أستطيع الركض نحو مصدر النور، ليلا كنت أذهب الى المقهى لأشرب البيرة ثم أعود في ساعة متأخرة، أسير وحدي الى البيت كان الظلام دامسا والطريق موحشا لكنني لم أكن أعبأ بشيء، أرفع صوتي بالبكاء، أصرخ وأنا أرى النجوم تتلألأ في السماء،

قدْ خطواتي اليك يا رب لا تبتعد عني .. أين أنت ؟! لماذا أنت قاس يا ألله ؟! عبدك يناديك أحتاج اليك، أقذفني في جهنم ان كان هذا مصيري، أو افتح لي الباب فما أزال أدق وأنت لا تريد أن تسمعني ..

.. فجأة تذكرت أن الوقت يمضي ونحن الآن في السابع من سبتمبر عليّ أن أتحدث مع المسئولين حتى لا يظنوا أنني تركت عملي دون اهتمام برأيهم وجاء الصوت من مصر - كان رئيس الجامعة - أأنت هناك حتى الآن؟ ظننت أنك تكلمني من مصر، الدراسة بدأت لا بد أن تعود والا .. !! قلت لنفسي هذا هو الحل، الله لا يريدك لأنك لست شجاعا كما ينبغي، أو أن النور لا

يريد أن يسطع ويملأ كياني كله فعليك بالظلمة، وعد إلى بلدك، إلى عملك الى التيه وحاول أن تقتل صوت الإله الصارخ في أعماقك بكافة الطرق، بالشرب، بالنساء، بأي طريقة.

ذهبت لأحجز تذكرتي يوم الاثنين ١٠ سبتمبر، بحثت عن أول طائرة الى مصر فلم أجد الا يوم الخميس ١٣ سبتمبر، الخامسة مساء من «دالاس» الى «نيويورك» ثم الى القاهرة مباشرة. عدت الى بيتي أحزم حقائبي وأجهز نفسي. هيئ لي إنني قد ارتحت أخيرا، تصورت أن الموضوع الشائك - الإله - قد حسم، ولكن الله تحنن عليّ وتدخلت يده القادرة وألغى سفري بمعجزة!!

لقد كان اليوم التالي هو الثلاثاء الدامي ١١ سبتمبر ٢٠٠١ وأحداثه المؤسفة المريرة وأُغلقت المطارات وأُلغيت كل الرحلات .. ياربي ماذا تريد مني أبحث عنك فتهرب مني وها أنذا أختار العودة الى مصر فإذا بك تتدخل وتستبقيني!! قلت لنفسي انه الآن «يريد» هيا إلى الخطوة الأولى ان لغتي الانجليزية ليست جيدة، عليّ أن أبحث عن قس عربي، ووجدت يدي بحركة تلقائية تمتد إلى مطبوعة عربية مكتوب عليها كنائس عربية، الكنيسة العربية المعمدانية، القس «اسبير» ورقم الهاتف والكنيسة الانجيلية بميريلاند ورقم الهاتف. كان ذلك يوم الأربعاء ١٢ سبتمبر، خرجت لأتكلم في التليفون العام خوفا من أختي، تحدثت إلى (أ)، كان قلبي يرتجف .. كنت أهتز من أعماقي والعرق يتصبب على جبيني، ما هذا الذي تفعله ؟! وجاء صوت «الأنسر ماشين» فتنفست الصعداء وضعت سماعة التليفون سعيدا، لقد فعلت الآن ما عليّ اذن لأعد إلى بيتي آمنا مطمئنا، ولكن النار قد بدأت جذوتها الواهنة في الاشتعال .. كان قلبي قد أصبح بركانا هائلا يكاد ينفجر، كنت أسمع دقاته بوضوح، خشيت على نفسي، عدت لأتكلم مرة أخرى ولكن هذه المرة إلى القس (م)، متمنيا بيني وبين نفسي أن أجد «أنسر ماشين» وينتهي الموضوع وأهرب من

المواجهة، إنها أقسى أنواع المواجهات في حياتي، فكيف يضيع تاريخك كله، كيف تترك المناصب والبلد والبيت والأهل والأولاد وتأتي كالمتسولين بحجة البحث عن الرب. إن أنت إلا مختل عقليا، حسم الصوت الجميل الحنون القادم من بعيد على التليفون - المعركة بكلمة واحدة: أهلا حبيبي، قلت فقط ألوه .. اليك الحوار كما حدث:

- أنا يا قس موسى فلان لا ينقصني شيء - ملحوظة (أنفاسي متقطعة والكلمات تخرج بصعوبة وصوتي يختلج بالدموع التي انسكبت فجأة) - أنا صاحب مناصب كبيرة وعميد كلية متخصصة في الدراسات الاسلامية، لي من الكتب ثمانية تباع في السوق، واسم معروف مشهور، لي موقعي المتميز في الدولة لا أريد شيئا من كل هذا، فقط أبحث عن الاله، أبحث عن السعادة أنا تعبان .. تعبان وتصورته أمي أو أبي رحت أشكو إليه وأصرخ، ارتفع صوت بكائي غصبا عني، لم أتحكم في نفسي، تصورت أنه المسيح الذي يكلمني يغمرني بكل الحب والدفء والحنان.

- اهدأ يا أخي الحبيب، أنا إلى جوارك والرب يهديك وهو معك الآن، هو الذي أرسلك لتكلمني

- ماذا أفعل يا سيدي القس؟!

- سلم قلبك ليسوع المسيح، اقبله مخلصا لك وهاديا وفاديا

- وهل يقبلني؟! أنا مليء بالخطايا والآثام أنا لم أترك شيئا الا فعلته خمر ونساء وبعد عنه

- هو يقبلك الآن، صلي معي يا حبيبي، ..

وصلى معي القس موسى لأول مرة في حياتي كلمات حلوة منغمة كأن الله اختارها لي كي يجريها على لسان القس موسى، كنت أحتاج إلى هذا النوع من الكلمات، لم أعد أذكرها لأنها كانت غريبة عني ولكني أذكر أثرها عليّ، هدأ صوتي وتحشرجت آهاتي وبدأت الدموع تنسكب بغزارة دون بكاء، كنت أغتسل، أتطهر، أعلن براءتي، رضاي وقبولي للحبيب يسوع، عمني السلام فجأة، سكن قلبي وبدت سعادة غامرة كأن كنوز الدنيا كلها أضحت بأيدي.

عدت إلى البيت أرقص في الطريق، أي سعادة سكبها في قلبي هذا الاله الحلو الجميل الطيب، أنه يرفض أن يكون مجرد اله، انه أبي ... آه يا أبي على هذه العلاقة التي أتذوقها الآن، آه على الرحيق الشهي الذي أشعر به في أحشائي كنت كمن يستعد للولادة، مررت بمرحلة المخاض، تعذبت في «الحمل» تألمت كثيرا ولكن ربي عطف عليّ أخيرا، ناداني، أرسل إليّ أخي القس موسى الذي قذف بالنور في أعماقي فتضوأت!! كنت كأن وجهي يلمع وعيناني يسكن فيهما الامتنان للرب الذي قال لي تعالى يا ولدي أخيرا.

عدت إلى البيت بطريقة غير التي خرجت بها، قالت أختي: ما هذا الذي يجري؟! لقد كنت لا تطيق أحدا، وجهك مكتئب قلبك مكسور ما الذي حدث؟! هو السر، لا يا حبيبي لن أبوح به لأحد الآن، سأغلق قلبي على حبك حتى ينمو وينمو ويترعرع ويصبح عودا أخضر بل جبلا من الخضرة ولا يستطيع أحد أن يهزه من مكانه. ماذا حدث؟! . «ألست أختك»؟! «قالت أختي بحزن خوفا عليّ». كانت دموعي تنسكب لكن لأول مرة في حياتي، دموع أخرى، ليست دموع الحيرة وخيبة الأمل والحسرة، والضياع، إنها دموع الراحة الكبرى، الفردوس المفقود الذي عاد إليّ وجهّز لي في السماء كنت أرى مكاني هناك في مدينة الله أنعم بصحبته، أنظر اليه أصلي لمرآه. هو الرب يعلن لي الخلاص والبرء من

دائي!! .. لا شيء يا أختي .. لكنني سعيد .. اتركيني لشأني.

بالطبع لم أنم، خفت إن نمت فقدت اللحظات التي أنام فيها بعيدا عنه .. كان عزيزا عليّ، حين لقيته أمسكته بيدي حتى لا يهرب مني، لقد وجدته أخيرا، هل أتركه وأنام ويصبح هذا مجرد وهم. قضيت ليلي ساهرا أحادثه أقول له من أنت؟! ما شكلك كيف أزداد ايمانا بك وتعلقا بنورك الساطع .. غفلت عيني دقائق، رأيت فيها الحلم المعجزة، لن أنسى هذا الحلم، كان مرعبا مخيفا وكان وعدا سعيدا، عشته باضطراب شديد .. وقمت بعده مفزوعا ولما استعدته على نفسي وجدته يحمل لي شيئا جميلا، لم أعرفه لكن يسوع أخبرني بذلك، لا تجزع انك بأعيننا يا - يا مايكل - فقد رأيت نفسي أغرق في ترعة كبيرة ويأتي البوليس ويستخرج الجثة وكنت أقف على الجانب الآخر ببدلتي الأنيقة واقتربوا يسألونني هل أنت - مايكل - قلت لهم نعم أنا هو قالوا لي لكنا وجدنا جثتك هناك عند النهر تعالى وشاهدها، قلت لهم لست هو، فقالوا ولكن الهوية واثبات الشخصية في جيب جاكتتك يقول أنك د. - مايكل - قلت لهم أنا هو «...» لكنني انسان جديد «مايكل» الآخر قد مات وانتهى.

حدثت أخي موسى في التليفون - صباحا - أنتظر تفسير الرؤيا فأسعدني قائلا: هذه يا أخي الولادة الجديدة - كنت بالطبع لم أقرأ عنها - لقد أراكها يسوع بنفسه لقد اختارك، هنيئا لك هاللويا!! معقول ربي يفكر بي ويهتم إلى هذه الدرجة؟! إنه سريع الاستجابة، هو يرحب بي ويقول لي إنني أحبك وأنك معنا دائما «لا أهملك .. ولا أتركك».

بدأت أبحث عن المعرفة بالدين الجميل، الذي نوّر قلبي وملأ حياتي بالأمل والحياة والحب. انتظرت موعد القس موسى، لم

أكن قد رأيته من قبل، كان موعدنا الخامسة يوم الخميس ١٣ سبتمبر موعد طائرتي المغادرة إلى القاهرة!! يا لك من إله عجيب حقا٠٠!! تأخر موسى عني: - فخشيت على سعادتي وحلمي الجميل أن يكون مجرد خيالات تسبح في خيال أديب ٠٠ لكنه قطع الشك باليقين وجاء هذا المؤمن الممتلىء بروح الله اقترب مني وعانقني، تصورته المسيح بالفعل، لماذا لا يكون هو يسوع نفسه، انه إله متواضع وأب حنون، لماذا لا يكون قد حل بأخي القس موسى، لأن هذا اللقاء تتعدى نتائجه امكانيات بشر عادي، فلقد لمس أوتار قلبي، أشعر ني بالأمان، طرد الوساوس والمخاوف من طريقي قرأنا في الانجيل لأول مرة، كان يتحدث عن «نيقوديموس» والولادة الجديدة التي بالروح٠ فقد أجاب يسوع وقال له: الحق أقول لك: إن كان أحد لا يولد من فوق، لا يقدر أن يرى ملكوت الله ٠٠ قال له نيقوديموس «كيف يمكن للإنسان أن يولد وهو شيخ؟ ألعه يقدر أن يدخل بطن أمه ثانية يولد؟ أجاب يسوع الحق الحق أقول لك: إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله٠ المولود من الجسد جسد هو والمولود من الروح هو روح٠ لا تتعجب أني قلت لك: ينبغي أن تولدوا من فوق٠٠» يوحنا ٣-٣:٨

كان اللقاء في أحد المطاعم الصغيرة٠ طلب لي أخي موسى طعاما وقهوة ولكني تركتهما، لم أدر بنفسي كنت سكرانا بالمحبة، تواقا إلى المزيد، كل كلمة تخرج من فمه، تدخل إلى أعماق فتنورها وتزيدها بهاء وجلاء، كانت كلماته تهزم الظلمة في داخلي واليأس والدنيا وهمومها ٠٠ قال لي سلّم نفسك تماما إليه بكيت وقلت أعطيته عمري كله، هو الذي أرسلك لي، وقلت له بأسى ظاهر: أين كنت من زمان يا أخي؟! لماذا لم تأت من قبل حتى توفر عليّ هذا العذاب ٠٠ رد عليّ كل شيء بأوان هذا هو موعدك معه وهو لم يتأخر عليك، بلعت كلماته، أكلتها ملأتني بالشبع والإرتواء كأن هذا طعامي الذي أبحث عنه طويلا، كأن هذا غدائي

الذي يحتاجه جسمي وعقلي وقلبي أعطاني عددا من الكتب لا أتذكر سبعة أو ثمانية لكني انتهيت منها في ثلاثة أيام .. اندلعت نار في داخلي، ولكنها تختلف عن النار الأخرى، هي نار الشوق إلى كلمة الرب، إلى معرفته إلى حكمته إلى أخبار الرسل والأنبياء، كنت أريد أن أمتلىء بهم، وأعماقي تطلب المزيد.

بدأ الطريق يتسع لي بعد أن كان ضيقا، بدأت عيني تبصر بعد أن كان الظلام هو سيدها، ومنتهى رؤيتها، بدت لي الحياة ترقص، والرب يريدني سعيدا فرحا لا مغموما أو مقهورا، بدأت أصلي وحدي عدا الصلوات التي كنت أصليها يوميا مع القس موسى، اكتملت فرحتي وظهر الإيمان واضحا عليّ وأنار وجهي، لفت انتباه أختي فراحت تسأل ماذا هناك؟! أحوالك عجيبة وأمورك فيها شيء ما تخفيه؟! قلت لها لا شيء لكني أشعر أن الحياة جميلة، هبة من الرب إلينا فلماذا نضيعها في الحزن والغم والنكد .. استنكرت اجابتي فقالت أنت الذي تقول هذا؟! انك - منذ صغرك - وأنت تحب الحزن وتبحث عن الشقاء ولا ترى في الدنيا إلا وجها واحدا كئيبا؟! سبحان الله، من غيّرك؟! أهي امرأة جميلة دخلت حياتك؟ أهو حب جديد؟ أخبر طيب وصلك من مصر ؟! لم أجبها .. بماذا أقول؟! رحت أخفي النور عن العيون المتلصصة خشيت أن يطفئوه، تظاهرت بالعودة إلى حالتي السابقة ضنا بمشاعري الحلوة مع الرب خشية أن يأخذها مني انسان آخر، حبست النور عن المتطفلين وكان مجهودا صعبا أن يرقص قلبك بينما وجهك تضع عليه علامات الامتعاض!!

لست ممثلا حسنا، فشلت مسرحيتي وقرأت أختي فجأة ما كنت أكتبه لقائي بالقس موسى وحكايتي وتأملات في الحبيب يسوع .. انزعجت صارخة ما هذا يا .. أتترك دين الاسلام؟! أيشطح بك الخيال إلى هذا الحد؟! ماذا تريد؟! اذا كنت تريد أن تعيش هنا وتترك بلدك فسوف أدبر لك الأمر مع زوجي، لكن ..

اتضحي بمناصبك في مصر وأهلك وأمك العجوز وأولادك الذين ليس لهم سواك؟! عد إلى عقلك وتعالى صلي الآن أمامي، هيا توضأ - اقرأ في القرآن عسى الله يهديك ويبعد عنك الشياطين .. أنك أملنا وأخونا الكبير كيف بالأكبر يسقط أمامنا؟! وماذا نفعل نحن؟! ان عرف زوجي فسوف يطلقني لأنه متشدد جدا - ستكون السبب في خراب بيتي!! ولم أهتز .. فطلبت مني أن أترك البيت .. ولا يحق لي أن آكل معهم لأنني في عرف الاسلام كافر يستحق القتل فورا .. خرجت مغضبا من عندها لأتصل بأخي موسى .. ماذا أفعل؟! لقد عرفت وتهددني وطلبت مني أن أغادر منزلهم مع أن بيتهم كبير فزوجها هنا منذ ربع قرن وهو أمريكي الجنسية منذ فترة بعيدة ويستطيع أن يلحق بي الأذى عن طريق الجماعات الاسلامية المتشددة هنا ..

قلت يا رب .. هل تتركني؟! لقد بدأ المشوار الصعب ولكني أترك لك الأمر .. طمأنني القس موسى بأنه سيبحث لي عن مكان بديل، حتى أقرأ وأكتب ولننتظر الرب يهدينا إلى الخطوة القادمة .. يومها قال لي موسى سأبحث في طلب اقامة لك وتدبير الأوراق فقلت له لا لن أترك بلدي .. سأذهب إلى هناك، رغم أي شيء، وسأحاول الحفاظ على ديني وبلدي. والحقيقة أن القس موسى كان يدرك معنى ذهابي إلى مصر ثانية، اذ سأواجه المشاكل وربما أضطر للضغوط الشديدة إلى العدول عن مسيحيتي.

أخبرت أختي الحمقاء زوجها بكل شيء، فدبر معها أمرا كان مفاجأة لى في اليوم التالي. وحين عدت بعد مكالماتي التليفونية استقبلتني أختي - على غير العادة - بابتسامة واسعة قائلة لدينا ضيوف غدا، ولا تخرج في الظهر حتى نتناول الغداء معهم، هم يريدون أن يتعرفوا بك. احترت في الأمر وخشيت من تدبيرهما، فليس من عادتيهما استقبال ضيوف، وهما - معا - يحبان المال

ولا يمكن أن يدعوا أحد للغداء لوجه الله!! .. ولكني قلت لنفسي (الرب راعي .. فلا يعوزني شيء). ان كان الله معنا فمن علينا؟! وهل ستدبر أختي أمرا يلحق الأذى بي، أقصى ما ستفعله هي وزوجها ان يدعوان بعض كبار الشيوخ إلى الغداء للتحدث معي واقناعي بالعدول عن أفكاري.

لم يدر في خاطري أبدا أن يكون الضيوف امرأتان، إحداهما آنسة لم تتزوج، مغربية الجنسية على قدر من الجمال ترتدي الحجاب الاسلامي، وصاحبتها سيدة أمريكية أعلنت اسلامها منذ شهرين، جاءت أختي بهما الأولى لكي أتزوجها وأقيم معهما اقامة شرعية والثانية كي تسألني عن بعض آيات القرآن - وقالت أختي أنظر إلى الايمان يتلألأ في وجهيهما ان الأمريكان يتركون المسيحية ويهجرونها إلى الاسلام، لأنهم لم يجدوا فيها مبتغاهم، وأنت تترك النور إلى الظلمة .. أفق يا أخي .. وهذه الآنسة الجميلة تريدك زوجا لها حبا في رسول الله وانقاذا لأحد المسلمين من الكفر والضلال، هي تضحي بنفسها من أجل الدين .. فأجبتها ممتعضا، من قال أني أحتاج إلى عروس أو إلى تضحية، ليس هذا الموضوع في فكري الآن، أما صاحبتك الأخرى فلها ما تريد، أسلمت أو كفرت، لا شأن لي بها ولا أعرف كيف أجيبها على أسئلتها، ثم إنني مشغول بأمر ما واعتذرت للسيدتين وخرجت من منزل أختي إلى الشارع، أسأل الله أن لا يتركني لتدبيرهم ان هذا يشبه كلام النبي «ان مكرهن عظيم» ما أصعبه، أختي ذكية لعبت على وترى الحساس لكن القلب القديم الذي كان محبا للنساء قد تبدل الآن، دخله الايمان ولا يعدل بحب يسوع المسيح أحدا فوق الأرض.

لقد قرأت كلماته الحبيبة (لا يقدر أحد أن يخدم سيدين) متى ٦-٢٤. وسمعت صوته يطمئنني، لا تقلق وكان السلام يخيم عليّ حين واجهت أختي ليلا، أخبرتني أنني غير مرغوب فيه عندهم

مادمت على الكفر وأنني أملىء الآن بيتهم بالشياطين، وبهدوء قلت لها في الغد لن تريني هنا اطمئني واهدئي واطردي الشياطين.

في الصباح أخذني أخي الحبيب القس موسى إلى «شيلدفيل» في استراحة خاصة بالبعثات الارسالية. لم افطن في هذه الأثناء أن نقودي قد نفدت ولم أسأل إلى أي الأماكن انا ذاهب وماذا سأجد؟! في الطريق كان لساني يهتف بكلمات الرب «لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون .. لا تهتموا قائلين ماذا نأكل؟! أو ماذا نشرب؟! أو ماذا نلبس؟! فإن هذه كلها تطلبها الأمم. لأن أباكم السماوي يعلم أنكم تحتاجون إلى هذه كلها .. ولكن اطلبوا ملكوت الله وبره .. وهذه كلها تزاد لكم .. لا تهتموا للغد، لأن الغد يهتم بما لنفسه، يكفي اليوم شره ..» متى ٦-٢٥-٣٦:٣٥.

حين تركني أخي موسى في بيت الضيافة شعرت أنني طفل ألقوه فجأة في عرض الطريق وانصرفوا، لكن الرجل لم يملك حلا أفضل من ذلك، المسافة بيني وبينه تصل إلى أربع ساعات تقريبا!! فماذا أفعل؟! وكيف أُحرم من علمه وأنوار معرفته؟! قلت لنفسي الرب لن يتركني. مكثت في هذا المكان ثلاثة أسابيع قرأت فيها الكتاب المقدس بتعمق، قرأت الأناجيل الأربعة مرات، وأعمال الرسل والرؤيا، ومن العهد القديم التكوين، الخروج - التثنية، يشوع، أيوب - المزامير الأمثال، اجتهدت مع الكتب التي توفرت لي بالعربية، قرأت جزئين من تفسير الكتاب المقدس، أرسل لي القس (ج. ع.) - دون أن يعرفني - بعضا من الكتب الثمينة التي أفادتني جدا. في مركز الارسالية حكيت أختباري لأول مرة، كانت تترجم لي أخت جاءت من الخلفية الاسلامية أيضا اسمها «روث» دمعت أعين الذين سمعوني وهنأوني بالإيمان. تعرفت على أسرة الصديق (ر. أ.)، رأيت الأسرة المسيحية لأول مرة بعين الفحص والاعجاب، احترام، حب، تفان، عطاء، ان تعاليم المسيح

وكلماته أضاءت حياتهم وصنعت أسرة مسيحية ناجحة. معظم البيوت التي زرتها فيما بعد رأيت السعادة والمحبة والسلام في أرجاء البيت، بيوت باركها الرب بمحبته ووفر لها أسباب النجاح، أعطاهم الدواء فقبلوه والكلمة المضيئة فطبقوها فسعدوا في حياتهم ومعاشهم.

بعد فترة بدأت أفكر والآن ماذا عليّ أن أفعل؟! أن أظل هكذا دون اقامة قانونية، فهذا صعب، أو أطلب من أحدهم مساعدتي فذلك أصعب منه .. ان لي مكانا ومكانة في مصر وأنا لا أرضى أن اتسول الاقامة أو أطلب شيئا لم يفعله الأخرون لي دون أن أطلبه، لم يعد معي نقود، اتصلت بأختي أطلب منها سلفة مؤقتة فأغلقت التليفون في وجهي قائلة ان أخيها «أنا» قد مات، رفضت أن تقف معي، واعتبرتها أنا كذلك قد ماتت. والآن أنا أحتاج إلى ثمن تذكرة داخلية من واشنطن إلى نيويورك وأما تذكرتي من نيويورك إلى القاهرة فهي صالحة فقط يتم تأكيدها والحجز.

وفجأة اختنقت بالدموع، كنت قد سألت مرتين عن القس موسى فلم أجده، لقد انشغل عني في عمله، وأختي رفضتني، ولا أستطيع أن أسأل أحد، عندها دخلت غرفتي وصرخت معاتبا له: يا ربي، ما هذا في أول تجربة تتركني؟ كيف تحرجني وتضطرني إلى الناس وأنت موجود، يا رب قلت بنفسك «اسألوا تعطوا، أطلبوا تجدوا، اقرعوا يفتح لكم، لأن كل من يسأل يأخذ، ومن يطلب يجد ومن يقرع يفتح له» فإلى من أتوجه بالشكوى وأنا هنا غريب وحيد، أنك أبي، بهذا أخبرت عن نفسك أين وعدك «إن أي انسان منكم إذا سأله ابنه خبزا يعطيه حجرا، وان سأله سمكة يعطيه حية؟! فان كنتم وأنتم أشرار تعرفون أن تعطوا أولادكم عطايا جيدة، فكم بالحرى أبوكم الذي في السموات، يهب خيراته للذين يسألونه) متى ٧-٧:١٢.

بمجرد أن انتهيت من صلاتي دق جرس التليفون، اذ الأخ «راي» يخبرني أنه تم تدبير كل شيء وسيأخذني في سيارته إلى واشنطن إلى أحد الفنادق الصغيرة ملك أسرة مسيحية محبة للرب وهي تستضيفك وتعمل من أجلك كل الذي تطلبه. يا ربي .. أنت جميل بهذا الشكل، سريع الاستجابة بهذه الروعة؟! أين صراخي القديم في وجه الإله السابق - إله المسلمين - وكان قاسيا معي لا يسمعني، ولكنك الرب الحقيقي، الرب العظيم العجيب القادر المشير تعرف حاجتي وتسمع إليّ، لا تتكبّر على أولادك فتصم أذنيك عنهم ولكنك مبتهج بسؤالهم لك سريع في استجابتك لهم. يا ربي لم أقصد أن أجربك، «وكيف تجرب الرب إلهك» .. بهذه السرعة، تقول لي أنا هو .. ما هذا يا ربي انت لم تعد تسميني عبدا بل حبيبا.

لقد سمعته يرد عليّ «لا أعود أسميكم عبيدا لأن العبد لا يعلم ما يعمل سيده لكني قد سميتكم أحباء لأني أعلمتكم بكل ما سمعته عن أبي» يوحنا ١٥-١٥.

طوال الرحلة كلها من «شيلدزفيل» حتى «واشنطن» حوالي أربع ساعات لم ينقطع بكائي، لم أجرب ربا بهذا الشكل، أخيرا وجدت إلها غيورا عليّ، تهمه شئوني، لا يهملك أبدا. هل أنا جدير بهذا الحب يا ربي يسوع؟! هل أنا أستحق هذه الرعاية؟! وماذا تفعل مع القديسين الذين سبقوني بالايمان، ماذا تصنع لهم وأنا ما أزال في أول الطريق جنينا بعد وتريني من نعمتك ولا تتركني لهواجسي .. وصلت إلى Guest House بواشنطن، وجدت «ريموند» صاحبه في انتظاري. أخذني في حضنه ونزلت دمعاته، ترقرق الحب في عينيه وهو يسمعني، قدمني إلى صديقه المؤمن «رالي» .. وجدت دفئا وحنانا لم أعهدهما في أهلي وعائلتي .. ما هذا الحب؟ لمجرد أنني أخ في المسيح، صرت أشاركهم حياتهم لم أتوقع أن أجني هذه المحبة من الرب سريعا، زادت محبتي

ليسوع الذي علمهم الحب الحقيقي والمشاعر الفياضة. هم يفعلون لأجله فقط، لا يريدون شيئا من عرض الدنيا الزائل..

يضع «ريموند» في مدخل فندقه الصغير الجميل قصة بعنوان «اليتيم».. يحكي فيها قصة حياته بايجاز، لقد كان مسلما لأم مسلمة أما أبوه فقد كان ضابطا ضمن القوات الفرنسية التي كانت تحتل سوريا ولبنان وحين انتقل أبوه من سوريا إلى لبنان اصطحب معه زوجته الصغيرة التي كانت مسلمة وهي أم «ريموند»، وبعد مقتل أبيه وتنكر أسرة أبيه لهم وطردهم لأمه وضربهم لها ووحشية المعاملة، دخل أحد الملاجئ بجوار معسكرات اللاجئين الفلسطينيين. لم يكن يجد ما يأكله، لم يضع حذاء في قدميه حتى صار صبيا، كل ما يذكره أن أمه كانت تصرخ وتنادي الرب وتطلب منه العون والمساعدة وأن يتدخل بنفسه في أمور حياتهم ولكنه لم يجبها أبدا مما جعل «ريموند» يستبعد فكرة الاسلام تماما. جاء إلى أمريكا لأول مرة حين كان عمره ١٨ عاما وتعب وعرق وكافح ونجح وحقق ما يريده وتزوج من «رولا» وله ولدان صبيان. عاش «ريموند» مسيحيا بالاسم إلى أن وجد المسيح، فقد كان يقرأ كتابا ما ووصل إلى موضع يتحدث عن تدخل المسيح، فتحداه وأعلن له ما هذه السذاجة لو كنت صحيح صادقا أيها المسيح تعالى اليّ الآن.. ولم يتخلف المسيح يسوع وجاءه فورا ومن يومها و«ريموند» صار رجلا آخر محبا للمسيح الذي جعله ابنا له يمجد اسمه بين أركان المعمورة، سافر إلى العراق بتوجيه من المسيح حيث دعا أحد الضباط العراقيين - ولم يكن يعرفه «ريموند» إلى الإيمان - تقبل الرجل ممتنا أن يفكر فيه الرب ويرسل اليه من يقوده إلى النور، وهو كثير الأسفار لنشر كلمة الرب، وقد عاد مؤخرا من اسرائيل بعد أن أعلن في المساجد والشوارع كلمة المسيح وقرأ لهم من الكتاب المقدس ودعاهم إلى قبول المخلص.

كان «ريموند» يشعر بي ربما لأنه مر بالتجربة نفسها، وحين قرأت في قصته صراخ أمه إلى الله أن يأتي ويخلصها من الظلم وقسوة الأهل وشظف الحياة ولم يأت اليها أحد ولا ساعدها بشر، أدركت أمه بعدها أن الله بعيد جدا في الاسلام، أدخل «ريموند» في قلبي فرحة الرب بايماني وسعادته بي، فقد كان مبتهجا كأن ثروة كبيرة قد هبطت عليه. كان وجوده في هذا الوقت آية من عند الرب تقول لي أنني معك يا ابني لا أتركك ولا أهملك.

شخصية «ريموند» عجيبة حقا، فهو من الشخصيات النادرة التي لا تلقاها طوال حياتك إلا مرة واحدة، رجل أعمال ولكنه يفيض حنانا ورقة وعذوبة حين يأتي ذكر يسوع المسيح فتجده قد تبدل حاله تماما وذهل عن الدنيا، يسكب الكلمات سكبا ويضعها بسهولة في قلبك ولا يمكن أن تقاوم مشاعرك وأنت تتحدث اليه يتجلى الرب فينا، فكيف تتدخل حكمته ويصوغ من البشر، الطين، كائنات بهذه النضارة والطهارة والابتهاج، فهو دائم الذكر لمجد الرب، يسقيك رحيق الايمان فتشعر بحلاوته وتستطعم ما تزدرده فتطلب المزيد.

«ريموند» من جند الرب الذين جهزهم لأمثالنا يأخذون بأيدينا ويقدمون لنا باسم الرب كل ما نحتاج اليه ..

أما زوجته «رولا» فهي أختي، هدية المسيح التي أرسلها اليّ عوضا عن أختي في الجسد. ففي الوقت الذي طردتني أختي من عندها باعتباري كافرا، رزقني الرب بأخت أروع وأكثر حنانا وايمان وطهارة ومحبة في المسيح هي «رولا». تشعر حين تراها أنك ترى قديسة من زمن الخير الماضي، فهي كتلة من الايمان تتجسد أمامك، كلما شعرت بشيء من احباط أو ضيقات نظرت إلى وجهها المضيء بالايمان فأمتلىء يقينا وإيمانا ومحبة للرب الذي خلق كل هذا الصدق الانساني والمشاعر الفياضة وأودعها في قلب انسان. حين ترى« لورا» تشعر أن الدنيا بخير لأنها

تعطيك الثقة وتعديك بالنور الذي ينبعث من أعماقها. سهل للانسان أن يزعم حبه للرب ولكن صعب أن يقرن هذا القول بالفعل الصادق .. «لورا» تحلّ هذه المعادلة الشائكة..

آه ما أروع الايمان وما أجمل أن يتجلى فينا الرب فيحولنا إلى «لورا وريموند» «الذي فيكم الروح القدس أعظم من الذي في العالم» ١ يو ٤-٤. انها وزوجها كالملاكين ينشران الحب والخير والايمان في كل مكان يذهبان اليه.

حمل «ريموند» بنفسه حقائبي الثقيلة واختار لي أجمل غرفة وهيأ لي كل أسباب الاستقرار وساعدني في البحث عن الخطوة القادمة.

في الكنيسة العربية جاء أخي القس موسى يصحبني إلى هناك لأول مرة كان معي أخي «ريموند» وأختي «رولا». تعرفت على أخوتي المسيحيين المصريين، وتناقشنا وكان رأي الجميع ألا أفكر في العودة إلى مصر، فالخطر يحدق بي ولا بد أنهم سيفعلون بك الأعاجيب، ولكن كان قراري أن أذهب، أتحدى نفسي وأختبر ايماني وأعود إلى مصر، ان كان ايماني حقيقيا فالرب سوف يحفظني ويعيدني إلى هنا ان تعبت أو تعرضت حياتي للخطر.

كان «ريموند» قد أعد كل شيء - التذكرة والحجز والترتيبات - وسألت الله أن يختار لي ما يراه وأن يوجهني إلى الصواب، وقبل سفري بليلة واحدة ذهب بي «ريموند ولورا» إلى اجتماع للصلاة يعقده اثنان من المؤمنين الصادقين هما «جون وتريزا»، لم أتوقع أن أرى الملائكة على الأرض إلا حين رأيت هذا النوع من البشر، ملائكة، أطهار يمتلئون بالروح القدس والمحبة الخالصة. شعرت حين دخلت هذا المكان أن الرب يملأ المكان ويتجسد في المجتمعين على محبته. كان الترنيم بديعا مؤثرا بالرغم من عدم ادراكي

لبعض كلمات الترنيمة إلا أن المعنى لم يكن في حاجة إلى الفهم بل إلى الاحساس. لقد استنشقت المعنى وأهتز قلب طربا فرحا بالرب. هذا هو الرب الذي كنت أبحث عنه، رب تغني له وتسبح فيجود عليك بكرمه ويأتي ويحل عليك نوره وبهاؤه.

ظللنا نصلي ونرتل من الثامنة حتى الثانية عشرة عند منتصف الليل دون احساس بالملل أو الكلل، مهما يكن فالله معك لن يتركك لأحد لأن كلمة الرب أقوى وساعده أشد. قال اخوتي في الاجتماع بعد أن استمعوا إلى قصة خلاصي واختباري السماوي يجب أن تتعمد قبل عودتك إلى مصر. وبدأوا يعدون لتعميدي في البانيو الكبير، واحتفل بي الجميع حيث كنت بينهم «عريسا» يستحق التهنئة والمباركة. لقد انتقلت من الظلمة وعالم الضلال والكفر بالله إلى عالم النور والمحبة والايمان بالرب الواحد ذي الأقانيم الثلاثة. أحاطني الجميع بحب غامر تأثرت به كثيرا فكنت أذكرهم في مصر وتدمع عيني شوقا اليهم. ترى في وجوههم ايمانا حقيقيا يأخذك من نفسك ويجعلك تشتد في طلب الرب كي تصبح مثلهم نقيا صالحا، بدأت أستصغر ايماني، فماذا أفعل أنا إلى جوار هؤلاء القديسين الطاهرين، رجعت إلى قول الرب «متى فعلتم كل ما أمرتم به فقولوا اننا عبيد بطالون لأننا انما عملنا ما أمرنا به» لوقا ١٧:١٠.

أدركت أنني لم أصل إلى أصغر قلب مؤمن، لم أعط حبيبي يسوع حقه من التسبيح والايمان والصلوات الصاعدة إلى السماء، لقد بحث عني واختارني من كل هذه الملايين الضالة، الخراف التائهة، ياربي لماذا يثقلني حبك لم يعد قلبي الضعيف يتحمل عطاياك، أنت جميل يا أيها الاله..

فجأة انقضت أيام أربعة كلحظات سريعة وجاء «ريموند» ولورا يوصلاني إلى المطار ودموعهما تسبقهما، لقد كانا يودعان أخا

وصديقا وحبيبا في المسيح عرفاه منذ سنوات طويلة، وليس من أيام قلائل، كم هو الرب جميل، يوحد بين البشر، ويربط بينهم برباط المحبة الذي لا يزول أبدا.

وصلت إلى مصر .. كانت المفاجأة الكبرى في انتظاري .. ما هي يا ترى؟!

الوعد يتحقق!!

قال لي ربي «ها أنا أرسلكم كغنم في وسط الذئاب، فكونوا حكماء كالحيات وبسطاء كالحمام. ولكن احذروا من الناس، لأنهم سيسلمونكم إلى مجالس، وفي مجامعكم يجلدونكم، وتساقون أمام ولاة وملوك من أجلي شهادة لهم وللأمم، فمتى سلموكم فلا تهتموا كيف أو بما تتكلمون، لأنكم تعطون في تلك الساعة ما تتكلمون به» متى ١٠-١٦.

لم أجزع حين حطت بي الطائرة في مطار القاهرة الدولي، ووجدت اثنين من جهة أمنية سيادية في مصر في انتظاري أخذوني ضيفا معززا ليومين متتالين، يسألون عما لدي من معلومات وما أعرفه وما لا أعرفه ثم قصة تغيير الدين، وقد فتّشوا حقائبي وأخرجوا الكتاب المقدس ومجموعة كتب عن الديانة المسيحية «لا تكذب علينا وأصدقنا نكون معك صادقين أيضا، ونطمئنك منذ البداية نحن لا يهمنا أن تصبح مسيحيا أو يهوديا فهذا شأنك لكننا نهتم بأمن الوطن»، قلت لهم هذه الكتب للدراسة فقط وأنا كعالم وباحث ومفكّر عليّ أن أقرأ كل شيء وأنا أستعد لمؤتمر يعقد في أمريكا حول مقارنة الأديان، أما الوطن فأنا أفديه بدمي وبعمري كله ولا أسمح لأي كائن أن ينقص من قدره أبدا، قالوا أنك أنت سوف تتسبب في مذبحة كبيرة بين المسلمين والمسيحيين، المشكلة أنك شخصية معروفة وسيعتبر المسلمون خروجك عليهم هدما للدين وتشهيرا بهم وتسفيها لمعتقداتهم لأنك مسئول كبير كعميد لكلية اسلامية تخرّج علماء الدعوة والمسيحيون سيعدون هذا انتصارا لدينهم وتصديقا لوعد ربهم.

لو كنت انسانا بسيطا غير معروف لتم الأمر في هدوء كما تعلم وتعرف عن حالات أخرى تتم في السر لا نوليها اهتماما طالما أن

حدود الأمر مقصورة على عدد معين. نصحوني بالعودة فورا، إلى الخارج مرة أخرى، المهم يتخلصون مني ولكني قلت لهم أين لي ثمن التذكرة وأهلي الآن ينتظرونني وأعتقد أن جامعتي لن تفرط فيّ.

وصلت إلى الجامعة بعدها بيومين ولكني وجدت المسئولين حذرين في لقائي بهم، لم أجد مكاني كعميد للكلية بعد أن تسرب خبر خروجي عن الاسلام بفعل زوج أختي المتشدد الذي أذاع الخبر بدافع الانتقام مني وحتى يتم عدولي عن المسيحية ولكن الجهات الرسمية والأمنية فرضت على الموضوع سرية بالغة حتى لا يحدث ما لا يحمد عقباه، ليس خوفا عليّ ولكن أن تشتعل ثورة شرارتها الأولى أنا. وطلبوا مني جواز سفري وأخذوه ومنعوني من دخول المحاضرات حتى لا تتسرب أفكاري المسيحية إلى طلابي المسلمين فأفسد عقولهم .. قيل لي أمكث في البيت حتى نفكر في أمرك، قلت لهم حتى المرتب أن أردتم ألا أستلمه فلا أريده. الرب معي.

تذكرت قولته عن الباب الضيق «أدخلوا من الباب الضيق، لأنه واسع الباب ورحب الطريق الذي يؤدي إلى الهلاك وكثيرون هم الذين يدخلون منه». وها أنذا أعلن دخولي يا ربي من الباب الضيق، لم يعد يهمني شيء، لم تهتز شعرة واحدة فيّ، كنت واثقا من الرب، قال لي أنني معك فمن عليك؟ في منزلي عشت شبه عزلة، التليفون مراقب وأصلا لم يعد يرن، والأصدقاء أو شبه الأصدقاء لم يسألوا طالما خرجت من السلطة، وايثارا للسلامة والبعد عن المشاكل، لم يكن أولادي في البيت لأن الرب الحكيم دبر لهم مكانا آمنا آخر حتى لا يواجهوا هذه المنغصات التي لم يروها من قبل وأيضا حتى لا أنشغل بهم وأبحث أولا عن خلاصي وبعد أن أصل إلى البر أبحث في أمرهم وأسأل ربي أن يلحقوا بي.

قضيت في منزلي ثلاثة أسابيع أشبه بالسجين، لكنه اختبار جميل من الرب. كان يمكن أن أضعف والمطلوب مني جملة واحدة أعلنها على الاشهاد أي مجموعة من البشر، أعلن عدولي عن المسيحية وأستغفر الله وأطلب منه العفو وأعود مسلما من جديد وتعود اليّ مناصبي، لكن هل أفقد كل السعادة التي في داخلي!!؟ مرة أخرى أعود إلى الضلال إلى الظلمة التي عانيت منها كثيرا وهل إله المسلمين نفسه يحترمني وأنا أبدّل في الآلهة كما الأثواب؟! إن يسوع المسيح هو إلهي الذي كفاني وأرضاني وأسعدني وفرحّني.. هل أبدّله وهو الذي اختارني وبحث عني واحتضنني ومسح دموعي ووهبني السكينة والأمان والحياة.. هل أتركه وهو الذي أرادني وأدخلني ملكوته وأراني الفردوس الذي أعده لي..؟! هل أترك من فداني بدمه الذكي وقال لي بالفعل ليس بالكلمات أحبك يا ولدي... وقد مسحت خطاياك وصرت من الآن تنعم بالحرية لقد حررني ولم يستعبدني، قال لي أنك حبيبي وابني.. ماذا أريد أكثر من هذا؟! من يملك أكثر منه يأتي اليّ ويعطيني وأنا أتبعه.

ومن الموسف أن المسيحيين في مصر قد خافوا مني كذلك، لم يقتربوا مني خوفا من المشاكل أو العنف معهم، قال لي صديقي المسيحي الودود معي قبل أن أصبح مسيحيا وهو ضابط كبير «ابتعد عني أرجوك لقد هددوني».. بالنقل إلى حلاليب وشلاتين ان استقبلتك أو ساعدتك بشيء، قلت له أريد أن أصلي معكم في أي كنيسة، أريد أن أحتفظ بطزاجة الايمان، لا أريده أن يصبح شيئا باليا أو مجرد كلمات، أريد أن أتقوى أتعزى بكم ولكنه قال لي هيا، فكر أن تترك البلد سريعاً. أنني أعلم أشياء كثيرة أرجوك أترك البلد بأي طريقة، وصدقت كلمات الرب «متى طردوكم من هذه المدينة فاهربوا إلى الأخرى» متى ٦.

رحت أبحث عن مخرج والرب يبتسم لي معلنا أنني أجتاز الاختبار بنجاح، فقد أنفت من سماع القرآن ورفضت الصلاة حين

طلبت أمي ذلك مني، ولم أتأثر أبداً بنداء الصلاة الذي يتردد في مكبرات الصوت التي تحيط بمنزلي، قاومت كل دعوة للذهاب إلى صلاة الجمعة وسماع الخبائث والخداع والضلال، لقد شفاني الله وعافاني من كذبهم، أأعود اليهم مرة أخرى ويتسرب الشيطان الي ويهزني؟! كلا، ان يسوع معي يكفيني، وهو ماثل أمامي دائما يقول لي لا تجزع أو تحزن، اني معك ٠٠ كان الكتاب المقدس حصنا حصينا ودرعا واقيا من الخوف والقلق والحزن والانتظار المرير، كان في حضني دائما وفي سريري أنام معه وأصحو عليه، كان نوره يكفيني عن العالم كله ٠٠ أراد الرب كذلك أن يزيل من عيني الغشاوة وأنا أرى الدنيا بعيون جديدة، أرى جهامتها ووحشيتها، رداءة المكر وسوء الأخلاق وحب الشر والسعي اليه، سقطت ورقة التوت التي تخفي عورات الناس وأراني الله وجههم الحقيقي، لقد نزعوا الأقنعة التي كانوا يتجملون بها حين كنت في مناصبي الرفيعة، حتى العامل الذي كان يأتي ليقضي لي حاجاتي والذي كنت أطعمه بيدي عضّها، ولم يكلف نفسه مجرد السؤال عني أو قضاء مطالبي البسيطة، أبتعد فوراً عني يبحث عن سيد جديد يعلن ولاءه له.

آه أيها المصريون لماذا أنتم بهذا السوء؟! آه يا أهلي أبكي عليكم وأحزن لأجلكم لماذا التكالب على الدنيا والضعف والهوان؟! أين الله من قلوبكم الضعيفة؟! لماذا لا تعمروا قلوبكم بقوة الرب ونوره؟! حتى ذلك القس المصري الذي رأيته في مطار نيويورك فرحت برؤيته فالطريق طويل والترانزيت أطول في لندن، وجدته يهرب مني حين أخبرته بفرحة غامرة كأنني عثرت على ضالتي المنشودة - يا أبونا أنني أعلنت الايمان والمسيح قبلني ٠٠ وجدت وجهه يعرق ويرغى ويزبد ثم يقول لي مالنا وهذا الكلام ياباشا ٠٠ نحن على باب الله ٠٠ قلت له لست ضابطا ولا مباحث أنا دكتور في جامعة كذا٠ وأريته «الباسبور» ولكنه هرب مني ٠٠ كأن حية لدغته، وصرت أضحك بيني وبين نفسي متى يشعر

المسيحيون بقوة الله وبسلطانه فلا يخشون أحدا إلا الله. متى نصل إلى هذه الرحلة من التفاني في الدعوة لمجد الرب ولكلمة الرب.

فكرت في السفر عبر الصحراء إلى ليبيا، فهي طريق التسلل عبر الأسلاك الشائكة لا تحتاج إلى جواز سفر وهناك أتصل بأصدقائي هنا في أمريكا وهم يدبرون الأمر لكني أستبعدت الفكرة لخطورة الرحلة عبر الصحراء وانتشار قوات حرس الحدود من الجانبين مما يعرضني لمشاكل عديدة من بينها اطلاق الرصاص علينا. وسألته مرة أخرى يا رب، يا يسوع دبر الأمر واصنع بي ما يروق لك وما فيه نجاتي من كيدهم. كنت أتحدث تليفونيا مع أصدقائي «ريموند ولورا». من التليفونات العامة في الشوارع، وفي احدى المرات طلبت «ريموند» فلم أجده، وطلبت «عصام» صديقنا المشترك، كنت أتحدث من مكتب أحد الضباط وهو صديق قديم والاتصال من مكاتب الشرطة آمن، فقلت له يا عصام «ريموند» لا يرد عليّ أين هو الآن؟ فسألني: التليفون آمن؟ قلت له نعم، لا يوجد شيء تكلم فقال لي أنه في اسرائيل .. ووجدتني أضع السماعة من يدي فورا وقلت أنني لن أخرج سليما من هذا المكتب لأن جهات ما سألتني من «ريموند» هذا؟ واعتبرته خطرا على أمنها.

لم أشك لحظة واحدة أن الرب يدبر الأمر لي. بل كنت في أكثر الأحيان أكثر هدوءا وسكينة من بعض الذين اهتموا باخراجي سريعا من مصر. كان الاطمئنان واليقين باديا على لحياي، وجهي هادئ مستسلم لملكوت الله، سابح في نعمته أشكره على هدايته لي متذكر ومتأمل في وعده «الذي لم يشفق على ابنه بل بذله لأجلنا أجمعين، كيف لا يهبنا أيضا معه كل شيء؟» رومية ٨:٣٢.

علمتني هذه «الضيقات» أن الرب موجود، ما ناديَه قط الا أجابني، كان يدرك الخطر الماثل على حياتي ولكني تمسّكت بوعوده وشددت عليها، كم من المرات كنت أغلق حجرة نومي في شقتي حتى لا يفاجئني أحد واستغرق في الصلاة وأطلب منه وعوده ثم أنصت إليه وأهتف مثلما فعل صموئيل: «تكلم، لأن عبدك سامع» أصم ٣:١٠. وسمع الله صلاتي، فجأة يظهر في الأفق من يستطيع استرداد «الباسبور» من جهة سيادية كبرى في الدولة ولم أكن أعرفه لكن أحد أصدقائي المسيحيين يعرفه، فهو لواء كبير، ويحب الرب والمؤمنين، وتم تدبير مبلغ لأحدهم كي يتغافل عن «باسبوري» ولكن طلب مني أن أتوجه إلى المطار يوم الجمعة، ظللت هناك بلا نوم وبقليل من طعام وبكثير من الرضى والطمأنينة والاغتباط حتى صباح يوم الأحد إذ بأحد الضباط يأتي اليّ ويقول لي أنت فلان، قلت نعم، قال تعالى معي، وأخذ حقائبي قلت له أين الباسبور، أين التذكرة؟! إلى أين أنا ذاهب أرجوك حتى أرتب أموري قال لي خالك الباشا - ليس لي خال - أرسل اليك تذكرة على طائرة عمان الأردن التي سوف تقلع بعد ساعة، قلت هل أطمع أن تقدم لي خدمة وسأنقلها إلى خالي الباشا، قال تفضل، قلت يجب أن أتصل الآن بصديقي في أمريكا لأمر هام وعليك أن تساعدني، قال لي تحت أمرك، تفضل .. ياالله .. ياجميل .. يا يسوع الحبيب .. حادثت «رولا» كي تجهز لي تذكرة وتتركها في مطار عمان عصر اليوم الأحد وحتى أصل إلى أمريكا بأسرع وقت، وكان عصام يتكلم معها وينقل اليّ ما تقوله لكنني لم أخبره بالطبع أن الباسبور ليس معي حتى الآن، ولم يتركني الضابط الا على سلم الطائرة أعطاني الباسبور مختوما بختم الخروج والتذكرة إلى عمان.

وفي الطائرة كان معي تليفوني المحمول، اتصل بي الجنرال يقول لي لقد وفيت بكل ما وعدت به مع السلامة والرب يحميك. لا تفكر في العودة قبل سنوات حتى تهدأ الأمور.

يا ربي.. أخيرا خرجت .. أليست هذه معجزة؟! نعم طرأ على خيالي هاجس أنهم لا بد أن يعيدوا الطائرة من الأجواء المصرية إلى المطار مرة أخرى ان اكتشفوا هروبي، ولكنني أخذت أتمتم بالصلاة وبكيت شاكرا ممتنا رفعت يدي إليه لم أكن سعيدا بسلامتي قدر فرحتي بالوعد الذي قطعه الرب على نفسه «كل من ترك بيوتا أو أخوة أو أخوات أو أبا أو أما أو امرأة أو أولادا أو حقولا من أجل اسمي، يأخذ مائة ضعف ويرث الحياة الأبدية» متى ١٩-٢٩. أدركت أنني في عينه وأنه يهتم بي، وما خروجي بهذه الطريقة إلا دليلا منه واشارة اليَّ أن وعوده أكبر من أن تحصى وعطاياه لا تعد ونعمته الكبرى تتم حسب مشيئته.

كانت هذه الاشارات تكفيني، فالله غير غافل عني وهو معي دائما. حين وصلت إلى عمان بدأت في صلاة «السلامة» والشكر مبتهجا بحبه لي ورعايته التي فزت بها أخيرا .. وجدت الترتيب الالهي الدقيق في انتظاري وكل شيء كانت يد الرب تتدخل فيه .. في لندن بسبب الاجراءات الأمنية تأخرت كثيرا من الطائرة ولكنني وجدتها تتأخر عن موعدها ساعة كاملة!! ونزلت من الطائرة خارجا في مطار دالاس إلى الجوازات، سألتني السيدة المسئولة، لقد كنت هنا من ثلاثة أسابيع يا سيدي فماذا أتى بك مرة ثانية وأنت تعلم الظروف التي نواجهها، قلت لها انني أستاذ ولدي أبحاث في مؤتمرات علمية تعقد هنا، وكان «ريموند» قد أرسل لي «فاكسا» يدعوني إلى مؤتمر علمي عن مقارنة الأديان كي يراها المسئولون في الجامعة ويعرفوا أن الأمر كله عبارة عن دراسات وبحوث لا تدين وتغيير دين، وأخرجت لها ورقة المؤتمر فاعتذرت عن تأخيرها لي ومنحتني تأشيرة الدخول وقالت أرجو أن تقدّر ظروفنا فقلت لها ان أمريكا بلد الحريات ستظل دائما كذلك. الرب يحميها، وتصادف في هذه الفترة أن أعلنت حالات الاستعداد القصوى بسبب حادث ارهابي محتمل فمن الفترة من أول نوفمبر حتى السابع منه وكان حظي أن آتي في تلك الفترة

ولكن الرب كان معنّي أيضا .. في المطار وجدت أختي لورا في انتظاري، ما أن ركبت السيارة حتى انهمرت دموعي، شكرا لله واعترافا بفضله وأنا غير مصدق أنني حي أرزق وأنني ثانية في أمريكا!!

* * *

ليعلم القارئ أنني كتبت هذا الكتاب في أسبوع واحد، كانت الأفكار تتدفق عليّ، وتنهمر كالمطر والروح القدس يمليني، كم من الصفحات كتبتها كما لو كنت أضع المشرط في أعماق جسدي، وكم نزفت دمائي وصرخ داخلي وأنا أبتغي بكتابي هذا ليس متاع الدنيا وانما مجد الرب لقد تحولت تحولا عجيبا غريبا، كنت أهتم بكثير من الأشياء .. ملبسي وهندامي وصوري ومقالاتي ولقاءاتي وماذا أقول وماذا أفعل حتى أحقق ذاتي .. كنت نفسي .. كنت أبحث عن الأنا المغرورة بمتاع الدنيا الزائف وزخرفها البالي، والآن أصبحت أعمل من أجله، من الأنا إلى الهو .. كانت رحلة، اجتزتها لأن الله ناداني واختصني بحبه وعطف وتحنن وأراد أن يظهر فضله فيّ «تكفيك نعمتي» ٢ كو ١٢:٩.

أرفع كتابي اليك أخي المؤمن أن تصلي بعد القراءة طالبا من الرب أن يتمجد اسمه ويتعاظم ملكه وأن يفتح قلب وعقل المسلمين لكي ينقذوا أنفسهم من الكفر والضلال والعار «قبّلوا الابن لئلا يغضب فتبيدوا من الطريق، لأنه عن قليل ينفد غضبه طوبى لجميع المتكلين عليه» مزمور ٢-١٠-١٢.

وهنيئا لكل من يقرأ كتابي من أخوتي المسيحيين بالميلاد لأنه حتما سيجدّد إيمانه ويقبل المسيح لينعم بالسعادة والمحبة الدائمة.

الخاتمة

ذاتي القديمة الممتلئة كبرا قد خضعت ..

لقد طلب المسيح من تابعيه انكار ذواتهم فقال لهم «ان أراد أحد أن يأتي ورائي فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعني ..» متى ١٦-٢٤ المسيحية مدرسة الحب والتواضع وانكار الذات، بعد أن كنت مغرورا معتزا بمناصبي وألقابي، الرب جردني منها بمحبة خالصة كي يصطفيني له ويختارني لأمجد اسمه فقط .. أدركت أن «غرور الغني وشهوات سائر الأشياء تخنق كلمة الله فتصير بلا ثمر».

هذه هي قصتي، لم أحك كل شيء حتى لا أتهم بالمبالغة.

لم يصدق بعض ضعاف النفوس من المسيحيين فانطلق بعضهم بتحريض من آخرين يتعقبونني في مسقط رأسي ونشروا بحسن النية أو سوء النية قصتي على الجميع وقامت الدنيا ولم تقعد في مصر .. كان شرط الجهات الأمنية التي ساعدتني ألا يعرف أحد قصتي حتى لا تحدث فتنة، وحتى لا يتهمهم أحد بتهريبي بعد أن تغاغلوا عن جواز سفري وسمحوا لي باستلامه، الآن يتآمرون عليّ ويهددون حياتي، جيوش الظلام تتحرك يتقدمها ابليس يروجون الاشاعات ليقتلوا النور في داخلي ولكن كلما اشتدوا عليّ توهج الضياء وطمأنني يسوع ..

لكن الذي يحذ في القلب أن يرفض بعض المسيحيين آية وعلامة أرسلها الرب إليهم يوما ما سأعلن الحقائق بالصور والوثائق وسوف تذهلون!!

لكنني سأمجد اسم الله، وأبشر به لينتشر الحب والسلام فوق المعمورة.

يا سيدي الرب يسوع المسيح، أعطيتني أكثر ما أستحق.

من أنا حتى تفتش عني؟! من أنا حتى تمد يديك اليّ .. من أنا حتى تذيقني كل يوم رحيق الحب الصافي.

آه يا حبيبي لم أشعر بهذا الطعم من قبل ..
آه يا حبيبي أنت تعدني بالأكثر والأبهج والأروع ..
وها آنذا أعطيك «كلي»، فلتكن مشيئتك ..
آه يا حبيبي لشدة روعتك يظن كل منا أنك له وحده ..
حبيبي يسوع لي وحدي ..
هو قال لي ذلك ..
هل أتحمل حبك، فيضك الذي ينهمر عليّ كالمطر
يا ربي الحبيب رويدا رويدا عليّ
اقبلني خادما لك
وظّف قلمي لمجدك ..
لك المجد دائما والى الأبد .. آمين